

الصراع على إشبيلية

بين

الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين

(١٠١٣-١٠٩١ م، ٤٠٤-٤٨٤ هـ)

الدكتور فارس بوز

جامعة دمشق — كلية الآداب — قسم التاريخ

الصراع على إشبيلية بين الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين

(١٠١٣-١٠٩١م، ٤٨٤٤هـ)

صفحات من تاريخ مدينة إشبيلية، عندما كانت عاصمة لإحدى أكبر وأقوى دول من دول الطوائف في ظل صاحبها المعتمد بن عباد، الشاعر الرقيق والفرس العربي الشجاع الذي لمع نجمه في المعارك التي خاضها ضد الأسبان وخاصة في معركة الزلاقة الشهيرة ضد الفونسو السادس وكذلك عند استبساله في الدفاع عن عاصمته، بعد أن اجتاحت أسوارها جنود ابن تاشفين أمير المرابطين في المغرب.

يعكس تاريخ المدينة الصراع الدامي بين القوى الأسبانية الناهضة في شبه الجزيرة الإيبيرية في الشمال، التي بدأت حريها القومية التي عرفت باسم حرب الاسترداد، في محاولة للإطاحة بدول الطوائف وإنهاء الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة وبين القوى الجديدة المتمثلة بحركة المرابطين، التي ظهرت في المغرب جنوباً ورفعت راية الجهاد والتي هبت لنجدة القوى الإسلامية في الأندلس. لذلك كانت المواجهة بين المواجهة بين الشمال الأسباني وبين الجنوب الإسلامي أمراً محتوماً.

- لم يكد ينصرم القرن الرابع الهجري (١٠)م الذي يمثل العصر الذهبي للدولة الأموية، حتى انتابت الأندلس حالة مريعة من الضعف والتفكك تبعث على الأسى، فقد تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ، ودخلت الأندلس بعد ذلك في فترة صراع بين قوى متعددة^(١)، بعد أن أعلن أهل قرطبة إلغاء الخلافة الأموية^(٢) وقامت على أثر ذلك دويلات أو ممالك مستقلة دعيت "دول الطوائف"^(٣). وكانت هذه الدويلات على حال من الضعف الشديد لم تستطع معها أن تثبت لهجمات الأسبان. كما تفاوتت بالمساحة والموارد الطبيعية، ولم يكن عددها ثابتاً، لأن الدول الكبيرة نسبياً وصاحبة الموارد الأكثر، كانت قادرة على تجنيد المرتزقة^(٤) والإغارة على الدويلات المجاورة في محاولة للتوسع وبسط النفوذ. فأدى هذا الأمر إلى اختفاء عدد من هذه الدويلات من خارطة الأندلس، غير أن ذلك لم يزد الأمر إلا تعقيداً، لأن العداء أصبح مستحكماً بين هذه الدول نتيجة الصراع على الحدود، بعد أن تجاوزت أراضي تلك الدول نتيجة لابتلاع الدويلات الصغيرة. وأشهر من تبقى من هذه الدويلات^(٥) قبيل قدوم المرابطين إلى الأندلس:

١- مملكة إشبيلية:

وأصحابها من العرب وهم بنو عباد^(٦) اللخميون. وقد أسس هذه الدولة القاضي إسماعيل بن عباد في مدينة إشبيلية أولاً، ثم عمل بنو عباد (٤٠٤-٤٨٤هـ) على توسيع رقعة بلادهم بالإغارة على الإمارات الصغيرة التي تجاوزهم. فقد استولى المعتضد على بعض الحصون من مملكة بني الأفطس إضافة إلى مدينة لبلة وفتح شلب وولى عليها ابنه المعتمد، فأصبحت الدولة ممتدة بعد أن قضى بنو عباد على دولة بني جهور في قرطبة من شرق الوادي الكبير حتى الأطلس غرباً، إضافة إلى الجزيرة الخضراء جنوباً، كما خضعت لهم مرسية أمداً قصيراً.

٢. إمارة الشقر الأعلى:

لصاحبها ابن هود^(٧) الجذامي. وكان بنو هود قد تولّوا عليها بعد أن زالت دولة التجيبين في سرقسطة، وقد بقيت المدينة عاصمة للدولة الجديدة.

٢. مملكة طليطلة:

وتعرف بالثغر الأوسط لأنها من الممالك المواجهة للحدود الأسبانية لأصحابها بني النون المغاربة^(٨). من رجالاتها يحيى الملقب بالمأمون، الذي دخل في منازعات مع ابن هود صاحب سرقسطة وابن عباد صاحب إشبيلية، كما استعان بالأسبان في سبيل تحقيق أطماعه وحاول الاستيلاء على قرطبة من بني عباد ففشل في مسعاه^(٩). وقد تولى حفيده "القادر" الحكم ولكنه أرغم على الفرار^(١٠) ولجأ إلى الفونسو يستعين به لاستعادة ملكه الضائع^(١١).

٤. مملكة بطليوس الثغر الأدنى:

لأصحابها بني الأفطس^(١٢) المغاربة الذين انتسبوا إلى قبيلة تجيب العربية وقد امتدت رقعة هذه المملكة على حوض نهر آنة واتخذت بطليوس عاصمة لها. وقد دخل أصحاب هذه المملكة في نزاع مع بني عباد من جهة ومع بني ذي النون من جهة أخرى.

ومن أشهر رجالات هذه الدولة محمد بن الأفطس الملقب (بالمظفر)، و(المتوكل) الذي سقطت في عهده مملكة بطليوس في يد المرابطين.

٥. مملكة غرناطة:

وأصحابها بنو زيري الصنهاجيون^(١٣) (٤١٢-٤٨٣هـ). وقد أسس هذه الدولة حبوس بن ماكس ثم خلفه ابنه باديس، الذي استولى على مالقة من بني حمود بعد نزاع طويل مع ابن عباد. وفي عهده سقطت المملكة بيد المرابطين.

٦. مملكة المرية:

لأصحابها بني صمادح (٤٣٣-٤٨٤هـ)، الذين تولوا الحكم فيها إثر انقسام الدولة التي أقامها موالي العامرية في شرق الأندلس. وهذه المملكة من أصغر الدول المذكورة ولكنها غنية بالموارد بسبب نشاط مدينة المرية التجاري^(١٤).

وهكذا انقسمت البلاد مزقاً ودولاً وقام الأمراء "فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلتها أو عصبيتها، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها"^(١٥). هذا في الوقت الذي أصبح فيه الأسبان يتطلعون إلى بسط سلطانهم على شبه الجزيرة برمتها، بعد أن أصبحت حركة الاسترداد حروباً صليبية بمعنى الكلمة ترعاها كنيسة روما، وتجند الفرسان المسيحيين من أجل المشاركة فيها. روى صاحب البيان المغرب أن أحد الأمراء الأسبان قال لمحدثيه من المسلمين: "إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم فقد سكنتموها ما مضى لكم، وقد نصرنا الآن برادعتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا... ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم....."^(١٦).

في الوقت الذي ظهر فيه النورمان في جنوب إيطاليا وأخذوا يرنون بأبصارهم للاستيلاء على صقلية^(١٧)، نجح الفونسو السادس (١٠٦٥-١١٠٩) الذي أصبح سيد (ليون) و(قشتالة) في سياسته التي مارسها على ملوك الطوائف، فقد كان قادراً على أن يضم إلى بلاده ما يشاء من ديار السلام. ولكنه قنع بالجزيرة لقلّة عدد أتباعه^(١٨)، فهم لا يستطيعون تعمير الأراضي التي ينتزعها من المسلمين دفعة واحدة^(١٩)، في الوقت الذي سيفقد فيه أعداداً كبيرة منهم في القتال. لذلك لجأ إلى تحريض تلك الدويلات على بعضها "حتى ترق وتضعف"^(٢٠) وتتفسخ، فيضرب عليها الحصار ويرغمها على قبول شروطه المهينة.

لذلك امتنع الفونسو عن تأييد دولة إشبيلية في محاولتها احتلال دولة الزيريين في غرناطة لقاء جزية سنوية كبيرة^(٢١). بينما قنع بنصف ذلك المبلغ بدفعه الزيريون لأسباب نفسها. وبذلك أخذ "تغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تستمر إلى أن كلب العدو على جمعهم وملّ من أخذ الجزية ولم يقنع إلا بلأخذ البلاد"^(٢٢) وهكذا دفع ملوك الطوائف الجزية لعدوهم المتربص، وباعوا بلادهم ثمناً لبقائهم في السلطة، بل باعوا خلقهم وكرامتهم.

"وصاروا للفنش عمالاً يجبون له الأموال-لا يخالف أمره ولا يتجاوز له الحد^(٢٣)، وقد عد أحدهم أنه مقرب من الفونس لأنه أهدى له قرداً مقابل الهدية الثمينة التي قدمها له^(٢٤)"، وقد عمد الفونسو قبل احتلاله لطليطة إلى سياسة التهديد المباشر، فتحرك بجيشه "فشق بلاد الأندلس شقاً، يقف على كل مدينة منها فيفسد ويقتل ويسبي ثم يرحل إلى غيرها...."^(٢٥).

لم يكن الهدف من هذه المناورات السياسية خافياً على أحد، فقد صرح شيشلاند^(٢٦)، بذلك لصاحب غرناطة: "إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتى غلبهم العرب، وألحقوهم باخس البقاع، جليقية فهم الآن عند التمكن طامعون بأخذ ظلاماتهم ولا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف"^(٢٧).

أما بالنسبة إلى الأوضاع الداخلية لتلك الدويلات. فلم تكن الصورة أكثر إشراقاً. فإذا استثنينا الازدهار الفكري الذي واكب عصرهم، فإن الأوضاع كانت تنذر بأسوأ العواقب. فقد كانت الرعية ترزح تحت أعباء مالية باهظة، إذ كان عليها أن تؤمن الجزية^(٢٨) لمملوكها. إضافة إلى مرتبات الجنود المرتزقة^(٢٩) ونفقات الحروب والفتن الدائرة بين الأمراء أنفسهم وتأمين الأموال اللازمة لحياة البذخ والترف في القصور^(٣٠).

وهكذا أصبح الناس "بين عدو يتربص بهم وأمير يسترق دمائهم"^(٣١) على حد قول الأمير عبد الله أحد ملوك الطوائف. وهذه المغارم المختلفة لم تعرفها الأندلس قبل عهد الطوائف. فالمغارم التي كان يقبضها السلاطين فإنما كانت بخاصة على الأرضيين فكانت تقرب مما فرض عمر على الأرض وأما اليوم فإنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها القطيعة ويؤدونها مشاهرة، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والخيول وعلى كل حليبة شيء وقبالات (ضرائب) على كل ما يباع في

الأسواق وعلى إياحة بيع الخمر بين المسلمين في بعض البلاد^(٣٢)، وهكذا كله ما يقبضه المغلبون اليوم. كذلك أخذ الزيريون أصحاب غرناطة على كل ما تنتجه الأرض، فقد كانوا يأخذون من الكتان نصفه أو ثلثه كما ذكر ابن حزم واحتكر بنو عامر تجارة الخيول، "فلا تكاد الرمكة تنتج مهراً حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه إلى أن يصلح للرياضة، فيقبض منه وعند ذلك يعطي منه خمسة دنائير لا يزال عليها في وقت ولا يبرأ منه أن تنفق إلا ببراءة، من ثقتة. ولقد قطع إذن رجل لقطعه إذن مهر، طلب التشويه بخلقه^(٣٣). ويصور الأمير عبد الله صاحب غرناطة^(٣٤) تلك الفترة أصدق تصوير ويبين المرحلة الأولى من سياسة الفونسو تجاه دول الطوائف بقوله: "وكان الجميع يساير الأمور ويدافع الأيام، ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا بزعمهم، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين"^(٣٥). وجاء احتلال الفونسو السادس الذي أطلق على نفسه لقب "الإمبراطور ذي الملتين"^(٣٦) لمدينة طليطلة^(٣٧) (٢٧) محرم ٤٧٨ هـ - ٢٥ مايس ١٠٨٥) ليدق ناقوس الخطر في أرجاء شبه الجزيرة. فتلك الكارثة التي ارتبط بها التحول الخطير في التاريخ الإسلامي لبلاد الأندلس وأدت إلى دخول المرابطين إلى الأندلس وأنزل ملوك الطوائف عن عروشهم. تلك الكارثة جعلت ملوك الطوائف يدركون أن الفونسو قد غير سياسته القديمة وأنه لن يرضى بعد اليوم عن الأرض بديلاً^(٣٨). فبادروا يخطبون وده ويسترضونه بالمبالغة في دفع الأتاوات والهدايا، ولكنه لم يقنع فقد كان يطمع بقرطبة "واسطة السالك"^(٣٩) واستولى على بلنسية وضرب الحصار على سرقسطة. ورفض الأموال السخية التي عرضت عليه لفك الحصار^(٤٠). وتغالي الروايات في تصوير مآثر الفونسو وأعماله البطولية وأنه اجتاز بلاد الأندلس حتى أقصى الجنوب "فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال: هذه آخر بلاد الأندلس..."^(٤١).

الدعوة إلى توحيد الأندلس:

عد ذلك ارتفعت في الأندلس دعوة لتوحيد الجهود، للوقوف صفاً واحداً أمام العدو

المتربص. وقد رفع لواء هذه الدعوة (طبقة) الفقهاء التي تزعمت قيادة الجماهير، ومنهم الفقيه عمر بن حسن الهوزني، الذي وقف جهده للدعوة إلى التوحيد ولم الشمل وألحظ على الجهاد، وأبوا الوليد الباجي الذي قام بجولة في عدد من المدن الأندلسية داعياً إلى لم الشعث ونبد الفرقة في وجه الزحف الأسباني...ولكن تلك الدعوات لم يكتب لها النجاح.

إشبيلية تستنجد بالمرابطين:

لكن قضية الدعوة التي دخل المرابطون على أثرها الأندلس والمنسوبة إلى ابن عباد تثير مسائل متعددة، لاختلاف روايات المؤرخين من جهة وعدم تسلسل الأحداث التي مهدت السبيل لدخولهم إلى الأندلس من جهة أخرى. والرواية المشهورة عن دخول المرابطين إلى الأندلس تذكر أن المعتمد بن عباد قد اختلف مع سفارة لالفونسو السادس عام ٤٧٥هـ التي قدمت لتسليم الأموال التي تعهد بتقديمها كجزية سنوية لالفونسو ملك قشتالة، وقد رفض ابن شاليب (ابن شبيب) اليهودي الذي ترأس السفارة، تسلم النقود بسبب عيارها وعداها زائفة، وهدد المعتمد بأن الفونسو لن يقنع بعد اليوم عن الأرض بديلاً، وأنه سيكون المدفوع في العام القادم حصوناً ومدناً لا مالأ زائفاً، ثم طلب بوقاحة السماح لزوجة الفونسو بالإقامة في مدينة الزهراء بعد أن تضع مولودها في جامع قرطبة.

اتصل بالمعتمد ما فاه به اليهودي فغضب من وقاحة السفير وأمر بصلبه وأسر بقية أعضاء السفارة. تأثر الفونسو عندما بلغه ما حل بالسفارة فأقسم بالله وبأرواح القديسين لينتقم لهم من عدوه انتقاماً مروعاً وليغزونه في إشبيلية. ويذكر الحميري أن الفونسو أرسل إلى المعتمد بن عباد رسالة يقول فيها: (كثر مقامي في مجلس الذبان واشتد علي الحر، فألقي من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي، وأطرب بها الذباب عني)، فوقع له المعتمد بن عباد بخط يده على ظهر الورقة (قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك

وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية، في أيدي الجيوش المرابطة، تروّح منك لا تروّح عليك إن شاء الله). فلما بلغ ذلك الفونسو أدرك فداحة الخطر.

أدرك المعتمد أن الفونسو متوجه إليه لا محالة، فأرسل إلى ابن تاشفين غرة جمادى الأول من سنة ٤٧٨ هـ/ ١٤ آب ١٠٨٨ م. يطلب منه التدخل لإنقاذ الأندلس ضارباً عرض الحائط نصائح ابنه (الراشد) الذي كره أن يستجد أبوه بالمرابطين مخافة أن يطمعوا في ملكه ويصرفوه عما بيده من البلاد، مفضلاً أن يرعى الجمال في الصحراء، على أن يرعى الخنازير في قشتالة. بل شاع بين المؤرخين أنه سعى لمقابلة ابن تاشفين شخصياً وحثه على العبور إلى الأندلس، وإن ابن الأفطس صاحب بطليوس قد شاركه هذا الرأي^(٤٢). ثم ركب الجميع الموجة بعد أن حذروا المعتمد سوء العاقبة^(٤٣). وأشاروا بمدارة الفونسو ومصانعته^(٤٤). وقالوا: "إن الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد!" فأجابهم "يا قوم إنني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شك ولا بد لي من إحداهما؛ أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين، أو إلى الأذفونس، فمن الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة شك، وإما حالة اليقين فإني إن استندت إلى الأذفونس أسخطت الله، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلا شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه...^(٤٥)".

إن هذه الرواية لا تعطي صورة صادقة عن الأحداث التي وقعت آنذاك، ولكنها تبين بوضوح أن دولة إشبيلية مهددة بالزوال سواء من الفونسو من الشمال أو من دولة المرابطين في الجنوب، وقد كره الأمراء أن يكونوا بين عدوين الإفرنج من شمالهم والمسلمون عن جنوبهم.^(٤٦) أما بالنسبة للمرابطين، فقد تم لهم فتح مدينة أغمات^(٤٧) عام ٤٤٩/ أو ٤٥٠ هـ/ وتابعوا زحفهم شمالاً تحركهم أسباب دينية (مثالية) وهي الرغبة في تحقيق الدعوة التي بثها أمامهم عبد الله بن ياسين، وإسقاط الحكومات التي لا تتسجم تصرفاتها مع الشرع وبعامل مادي للسيطرة على الخطوط التجارية القادمة من قلب الصحراء. لذلك ما إن تهيأت للمرابطين الموارد الحربية الكافية سواء في

الرجال أم في الأموال، حتى فتحوا مدينة فاس^(٤٨) الهامة عام ٤٥٥ وأنهبوا في ذلك الصراع الدامي بين زنانة وصنهاجة الجنوب.

وكان على المرابطين بعد ذلك لإتمام سيطرتهم على المغرب الأقصى، أن يستولوا على إقليم الساحل الغني بموارده المختلفة والذي يشكل حلقة من حلقات الاتصال مع الأندلس. لذلك اندفعوا بقواتهم لاحتلال ثغر طنجة الهام الذي تسيطر عليه قبائل برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، كما فعل الأمويون قبلهم واتخذوه قاعدة لقواتهم المتوغلة نحو الجنوب، تمهيداً لتوسيع نفوذهم في المغرب^(٤٩) وقد استطاع البرغواطيون إقامة إمارة لهم بمنطقة سبتة^(٥٠) وطنجة^(٥١)، معتمدين في ذلك على قبائل عماره^(٥٢) القوية بعد أن سقطت الدولة الأموية. ورغم أن المرابطين قد استطاعوا بعد فتح مدينة فاس القضاء على برغواطة في إقليم الساحل^(٥٣)، إلا أن تلك الإمارة الصغيرة بقيت تسيطر على المنطقة الساحلية وتتحكم بالمضائق، إضافة إلى أن أسطولهم القوي، الرابض في ميناءي سبتة وطنجة كان يتحكم في تجارة الأندلس.

والأمير البرغواطي^(٥٤) سكوت^(٥٥) هذا صاحب طنجة من قبيلة برغواطة الزناتية، ومنازلها على ساحل المحيط في المغرب الأقصى، بين طنجة وأصيلة (أصيلا)، وتجاورهم من الشرق منازل قبيلة غمارة الزناتية أيضاً. وكان سكوت على خلاف مع بني عباد^(٥٦) أصحاب إشبيلية ومهدداً لهم^(٥٧)، ولما قامت دولة المرابطين ووصل يوسف بن تاشفين إلى شمال المغرب قريباً من أحواز طنجة، طلب ابن تاشفين من الحاجب سكوت أن ينضم إليه ومن معه من الغماريين للقضاء على قبيلة برغواطة عام ٤٧١هـ. وقد رغب سكوت أول الأمر بالانضمام لابن تاشفين، ولكن ابنه ضياء الدين ثناه عن رغبته تلك^(٥٨). فلما انتصر ابن تاشفين على قبيلة غماره^(٥٩)، جهز جيشاً مؤلفاً من اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفاً من قبائل المغرب الأخرى، وأسند قيادة الجيش إلى صالح بن عمران وعندما اقترب الجيش من أحواز طنجة، خرج الحاجب سكوت البرغواطي صاحب طنجة للقائهم، وكان قد تقدمت به

السن وجاوز ستة وثمانين عاماً، فقال "والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونين وأنا حي أبداً^(٦٠)". ودارت بين الطرفين معركة حامية الأوار في وادي (منى) القريب من طنجة وانتهت بانتصار المرابطين بعد أن قتل سكوت وهُزم جيشه. ودخل المرابطون طنجة وكتب القائد صالح بن عمران إلى الأمير يوسف بن تاشفين يخبره بفتح المدينة وكان ذلك عام ٤٧١ هـ^(٦١).

لم يبق أمام المرابطين لإتمام سيطرتهم على الساحل إلا فتح مدينة سبته^(٦٢). لذلك حاصرت قواتهم بقيادة المعز بن يوسف تاشفين المدينة واشتركت بعض سفن^(٦٣) أسطولهم الناشئ بحصارها من البحر. وقد استطاع المرابطون الاستيلاء على المدينة في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ - تموز ١٠٨٤ م.

وبفتح مدينتي طنجة وسبته امتدت سيطرة المرابطين لتشمل إقليم الساحل المطل على الأندلس بعد أن انتظمت قبائل تلك الناحية كلها في سلك الدولة اللمتونية المرابطية. وهذا يعني أن المرابطين قد أصبح بإمكانهم العبور إلى الأندلس بعد أن أصبحت نقطة العبور تحت سيطرتهم.

دخل ابن تاشفين مدينة سبته، فأصلح أحوالها ورمم سفنها في الوقت الذي قدمت عليه الوفود من أرجاء المغرب، (فأتاه من بلاد الصحراء والقبلة والزاب، القبائل والحشود فشرع في تجويز الجيوش إلى الأندلس^(٦٤)). ورغم ما ذكره صاحب روض القرطاس عن رحلة ابن عباد وحثه لابن تاشفين على العبور إلى الأندلس لتلبية لاستغاثة أهلها، وتلبية ابن تاشفين لتلك الدعوة، فإن سير الأحداث التي جرت في ربوع المغرب قد بينت أن ابن تاشفين كان يعدّ العدة للتدخل في أمور الأندلس، متذرعاً بالجهاد قبل سقوط طليطلة عام ٤٧٨ هـ، وقبل رحلة ابن عباد التي ذكرها صاحب روض القرطاس.

ذكر المقرئ^(٦٥) نقلاً عن الحميري^(٦٦) أن ابن تاشفين قد تأقت نفسه إلى العبور إلى جزيرة الأندلس وهم بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها بعد أن تم له فتح

المغرب وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة^(٦٧)، حتى أنه طلب من سكوت بن محمد البرغواطي صاحب سبته بقصد الغزو، وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز فتعذر عليه، فشكاه يوسف إلى الفقهاء، فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبته^(٦٨).

وهذه الرواية ظاهرة الصحة تدل على عزم ابن تاشفين على العبور إلى الأندلس، كما تؤكد أن المرابطين لا يحاربون مسلماً إلا بفتوى. وقد طبقوا تلك القاعدة في جميع مراحل تقدمهم من الصحراء نحو الشمال^(٦٩).

ذكر صاحب روض القرطاس^(٧٠) وصاحب الحلة السيرة^(٧١)، نقلاً عن مصادر معاصرة أن أمير المغرب يوسف بن تاشفين قد ازدلف خلال ذلك إلى سبته حسبة ورغبة في الجهاد. وقد دانت له بلاد (العدوة المغربية)، وسأل سكوت بن محمد صاحب سبته أن يبيح له فرض الإجازة إلى الأندلس، فأبى وتمنع من ذلك فأفتى الفقهاء بقتاله لصدده عن سبيل الله، فقتل هو وابنه في خبر طويل. وفتح الله على ابن تاشفين سبته^(٧٢).

لذلك نرى أنه من المعقول أن يستمر زحف المرابطين شمالاً، باتجاه الأندلس، لتوفر العوامل نفسها التي دفعتهم للاستيلاء على المغرب الأقصى حتى سبته شمالاً. فحكومات الطوائف في الأندلس لم تكن أقل بعداً عن الدين من الدويلات المارقة في المغرب، وكما أنه تتوفر فيها فرص الجهاد ضد الإسبان (النصارى) الذين شنوا حرباً لا هوادة فيها ضد المسلمين. ورغم ماتؤكد المراجع من أن دولة المرابطين قد قامت من أجل الجهاد، وإنقاذ العالم الإسلامي مما دهمه من فرقة وتخاذل، إلا أنها كانت مدفوعة إلى جانب ذلك بعامل مادي للسيطرة على الطرق التجارية القادمة من قلب الصحراء، لأن الأندلس تشكل النهايات الطبيعية للخطوط التجارية والأسواق الهامة لتجارة المغرب وأفريقية المنطلقة نحو الشمال، وتمهد الطريق لأسواق أوروبا عن طريق موانئ شرق الأندلس ويدعمها في ذلك نمو البحرية المرابطية^(٧٣)، التي أصبح

بمقدورها حراسة الطرق في البحر، وتأمين الحماية للموانئ الهامة، في الوقت الذي أصبحت فيه بلاد الأندلس تنافس بأسواقها المغرب في ميدان التجارة الدولية وتقصدها المراكب التجارية القادمة من الإسكندرية والشام^(٧٤).

إضافة إلى أنه قد توفرت لهم (أي المرابطين) جميع الوسائل اللازمة للعبور^(٧٥) إلى العدو الأندلسية، بعد أن أصبحت كل الموانئ الهامة بحوزتهم، ووصلت الدعوة الضرورية اللازمة لدخولهم. وقد وصلت هذه الدعوة -كما سلف- قبل دعوة المعتمد بن عباد بعدة سنوات. فقد تلقى يوسف بن تاشفين دعوة من صاحب بطليوس الملك ابن الأفطس^(٧٦)، الذي تبنى دعوة الباجي، والأمير الزيري صاحب مالقة الذي أراد الانتقام من أخيه صاحب غرناطة^(٧٧).

بيد أن المعتمد بن عباد لم يكن مخلصاً في اتصاله بيوسف بن تاشفين وحثه على العبور إلى الأندلس لإنقاذها، بل هدف من وراء ذلك تهديد الأسبان به ليقنع الفونسو بالتخلي عن سياسته العدوانية التي تتمثل بأخذ المدن وضم أراضي المسلمين إلى مملكته، وبحمله على العودة إلى سياسته القديمة.

وهنا نتابع الأحداث كما وردت في رواية ابن الأثير^(٧٨). فقد اجتمع مشايخ قرطبة^(٧٩) بعد أن سمعوا ما جرى لأعضاء السفارة التي أرسلها الفونسو لابن عباد وقالوا:

"هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الإفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت" ثم ساروا قاصدين القاضي أبا بكر عبد الله بن محمد بن أدهم وقالوا له "إلا تنتظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذل وعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها منهم" وعرضوا عليه الاستنجاد بعرب أفريقية (فاذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله ...) ^(٨٠). وقد أجابهم القاضي أبو بكر محذراً من سوء العاقبة وقال: إنهم بعد أن يصلوا سيخربون البلاد كما فعلوا بأفريقية ويتركون الأسبان ويبدؤون بنا ثم أضاف والمرابطون أصلح

منهم وأقرب إلينا^(٨١). فقالوا له: "كاتب أمير المسلمين وأرغب إليه ليعبر إلينا ويرسل بعض قواده"^(٨٢).

ورواية ابن الأثير هذه تعتبر من أكمل الروايات حول الاجتماع المذكور، وتفيد بأن اجتماع الفقهاء كان ذا طابع عدائي بالنسبة إلى ملوك الطوائف بدليل عقدهم له سراً وخاصة أنه قد تم فيه الاتفاق على التحالف مع المرابطين.

ويذكر ابن الأثير بعد ذلك أن ملوك الطوائف قد اتصلوا بمؤتمر الفقهاء هذا. فقد أقبل المعتمد بن عباد بينما هم يتفاوضون، فعرض عليه القاضي ابن الأدهم مآخذوه من توصيات (قرارات) فقال ابن عباد: "أنت رسولي إليهم، أي إلى ابن تاشفين في ذلك"^(٨٣)، فامتنع القاضي عن قبول هذه المهمة كأنما يرى نفسه من تهمة عقد الاجتماع على حد قول ابن الأثير^(٨٤)، ولكن المعتمد ألح في طلبه فقبل القاضي المهمة.

بعد ذلك طلب ابن عباد من صاحب بطليوس وصاحب غرناطة أن يبعثا إليه كل منهما قاضي حضرته "فوصل من بطليوس قاضيهما أبو اسحق بن مقان، ومن غرناطة قاضيهما القليعي واجتمعوا في إشبيلية بالقاضي أبو بكر بن أدهم"^(٨٥) فعرفهم ابن عباد أنهم رسله إلى ابن تاشفين^(٨٦).

تدلنا رواية ابن الأثير أن المعتمد وملوك الطوائف كانوا بعد أن تقدم المرابطون شمالاً واحتلوا مدينة سبته الاستراتيجية، بين نارين، وحلوا المشكلة بجعل المرابطين يدخلون إلى الأندلس برضاهم ويضربونهم بالأسبان، وفي نفس الوقت يجردون دخولهم من خطره باشتراط عدم التدخل. وهذا ما أوصى به المعتمد وملوك الطوائف عندما طلبوا من الوزير ابن زيدون الذي رافق وفد الفقهاء، وأسندت إليه مهمة إبرام العقود بأن يشترط على ابن تاشفين "أن لا يعرض للأمراء في بلادهم ولا يقبل عليهم رعيته ممن يروم الفساد عليهم"^(٨٧). وقد بينت الأحداث عزم ابن تاشفين على العبور إلى الأندلس

كما بينت ملاحظة ابن عباد في تسليم الجزيرة الخضراء. وقد أكد الأمير عبد الله ابن بلقين، وهو شاهد عيان للأحداث التي تمت في تلك الفترة، أن الأمير يوسف بن تاشفين أرسل سفارة إلى إشبيلية بعد ملاحظة المعتمد، فأمسكهم عنده مدة ثم أرسل معهم وفداً من شيوخ إشبيلية ليعلموا ابن تاشفين عن موافقته تسليم الجزيرة، شريطة أن يتربص في سبته ثلاثين يوماً قبل ذلك^(٨٨). لكن أصحاب ابن تاشفين حذروه من المعتمد عندما طلب منه الوفد رسالة خطية وقالوا له: لا لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى الفونس يعلمه بقومك، وله منه ما يرغب ويهدد بك ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً. فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز... وإن كان النصراني لا يأتى له أرسل إليك في الجواز فأسبقه إليها^(٨٩).

لذلك تقدمت قوة مرابطية مكونة من خمسمائة فارس نحو الجزيرة الخضراء على رأسها داوود بن عائشة "وأحرقوا حوالها يحرسونها، ثم طلب من الراضي بن المعتمد تسليمه الجزيرة دون قتال وقال له" وعدتمونا بالجزيرة ونحن نأتي لأخذ بلدة ولاضرر بسلطان، إنما أتينا للجهاد فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا وإلا، فالذي تقدر عليه فاصنع...^(٩٠)" لذلك لم ير المعتمد بداً من التسليم بالأمر الواقع فطلب من ابنه تسليم الجزيرة للمرابطين^(٩١).

معركة الزلاقة وحصار حصن لبيب:

عبر يوسف بن تاشفين البحر بعد أن اجتمع له "نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كبير من الرجل^(٩٢) قاصد الجزيرة الخضراء بخرج إليه بما عندهم.... وامتلات المساجد والرحاب بضعفاء المطوعين^(٩٣) وقد أعلن ابن تاشفين أن هدفه من هذا العبور هو إنقاذ الأندلس من الروم (لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم للراحة.... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول الفتنة إلى المسلمين وأملأها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يرؤضه...^(٩٤)).

اتجهت القوات المرابطة نحو إشبيلية^(٩٥)، فهرع ابن عباد لاستقبال ابن تاشفين، وسارع كذلك ملك غرناطة^(٩٦) وأخوه صاحب مالقة وابن ذي النون وبنو عزون^(٩٧). حتى لم يبق من ملوك الأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج^(٩٨). بينما أرسل ابن صمادج ابنه معتزلاً بالضعف وكبر السن ولعله بقي "متربصاً فيرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم"^(٩٩)، على حد زعم الأمير عبد الله، الذي اشترك في معركة الزلاقة وصور الروح الإيجابية لملوك الطوائف عند ملاقاتهم لابن تاشفين بقوله: "ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك في رغبة، ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا، فضلاً على أموالنا... كل يرغب في الجهاد وقد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه... كأن القلوب إنما جمعت على ذلك"^(١٠٠).

وصلت القوات المشتركة^(١٠١) المغربية الأندلسية إلى الزلاقة^(١٠٢) من إقليم بطليوس وإلى هذا المكان وصل الفونسو ودارت بين الطرفين معركة حامية الأوار استمرت نهائياً كاملاً (يوم الجمعة في رجب عام ٤٧٩هـ / تشرين ١٠٨٦م) وانتهت بانتصار المسلمين، وتسلل الفونسو مع فلول جيشه تحت جناح الظلام إلى أحد الروابي لا يلوي على شيء^(١٠٣).

ورغم أن النصر الذي أحرزه المسلمون في الزلاقة لم يكن حاسماً لأنهم لم يقطعوا ثماره بالقضاء على العدو والتوغل في أراضيه، كما كان يرغب المعتمد بن عباد، وتبقى لمعركة الزلاقة نتائج متعددة غاية في الأهمية. فقد أوقفت المعركة المد الأسباني الزاحف من الشمال ومهدت السبيل لضم الأندلس إلى المغرب لتبقى في حوزة المسلمين أربعة قرون أخرى^(١٠٤)، كما أظهرت للمسلمين في الأندلس خطر الفرقة التي يعيشها أمراء الطوائف. فقد كادت الأندلس أن تضيع بسبب نزاعاتهم. كما بينت للمسلمين هناك أن المرابطين يمكن أن يكونوا جنود العدل وأن ينقذوهم مما يرزحون تحته من مغارم بعد أن سمعوا عن عدل المرابطين وتمسكهم بإحكام السنة، وأحيائهم بواعث الجهاد. كما رفعت تلك المعركة من مكانة ابن عباد. فقد أبلى في هذه المعركة

أحسن البلاء^(١٠٥) وعقرت تحته ثلاث أفراس... ولكنه استغل هذه المكانة لتوطيد سلطانه وأخذ يسعى لتوسيع مملكته معتمداً على قوة المرابطين وعلاقاته الطيبة معهم، بينما تلقى نجم ابن تاشفين أعظم التألق فهو منتزع النصر وبه انتهت هزائم المسلمين وبدأ حسن طالعههم.

وقد جمع ابن تاشفين أمراء الأندلس قبل مغادرتهم وأوصاهم بالتآلف والاتحاد لصد الأعداء، ثم عبر البحر عائداً إلى بلاده، بعد أن ترك حامية مرابطية على رأسها الأمير سير بن أبي بكر لتواصل أعمال الجهاد في شبه الجزيرة.

إشبيلية تستنجد بالمرابطين ثانية: (حصار حصن لبيب)

ما إن وطئت أقدام ابن تاشفين أرض المغرب، حتى عاد ملوك الطوائف إلى سيرتهم الأولى، وأخذ بعضهم يكيد لبعض وتناشوا أن العدو ما يزال قادراً على قتالهم. وقد استطاع الفونسو نتيجة لذلك أن ينظم قواته ليثأر لهزيمته التي نالها على يد المرابطين. فأخذ يغير بقواته على بلاد المسلمين. ويذكر صاحب روض القرطاس أن قواته عاثت في منطقة إشبيلية،^(١٠٦) هذا في الوقت التي ساءت فيه الأمور في شرق الأندلس من جراء الغارات التي كان يشنها المغامر القشتالي الذي عرف باسم السيد^(١٠٧) (الكمبيادور) وقد كتب سيرين بن أبي بكر قائد الحامية المرابطية في الأندلس إلى الأمير ابن تاشفين يخبره (أن الجيوش بالثغر مقيمة على مكايده العدو... وملوك الأندلس في أرغد عيش وأطيبه)^(١٠٨).

وقد تركز الخطر الجديد على المنطقة الشرقية في حصن لبيب^(١٠٩) وهو حصن منيع بني فوق جرف عال متداخل من أراضي المسلمين في منطقة مرسية على مقربة من لورقة. وكان هذا الحصن مركزاً لحامية أسبانية مكونة من ثلاث عشر ألف جندي بينهم ألف فارس^(١١٠). وكانت تلك الحامية تقوم بأعمال العدوان والتخريب في مناطق بلنسية ولارده وشاطبة ومرسية مهددة بذلك أملاك المعتمد بن عباد^(١١١)، والذي أدرك

فداحة الخطر الذي يتعرض له بعد أن عمد الفونسو إثر معركة الزلاقة إلى التركيز في أعماله العدوانية على أراضي لورقة ومرسية، ليثأر من المعتمد لخروجه عن سياسة التحالف السابقة واستجاده بالمرايطين^(١١٢). وكانت مدينة مرسية تابعة للمعتمد بن عباد من الناحية الشرعية وكان مدير شؤونها ابن عمار،^(١١٣) ولكنه خرج عن طاعته بعد خلاف وقع بينهما فأرسل المعتمد بن عباد إلى المدينة ابن رشيق^(١١٤) للإطاحة بابن عمار عامله المتمرّد فيها. وقد استطاع ابن رشيق تسلم زمام الأمر في المدينة إثر غياب ابن عمار عنها، بعد أن استمال وجوه القوم فيها. ولم يستطع ابن عمار العودة لاستعادة ملكه وقصد إلى صاحب سرقسطة ودخل في خدمته^(١١٥)، ثم حاول الاستيلاء على شقورة^(١١٦). فوقع في أسر صاحبها الذي سلمه للمعتمد بن عباد وانتهى أمره بأن مات قتيلاً بيد المعتمد^(١١٧).

غير أن ابن رشيق كان وصولياً أكثر من ابن عمار. فلم يلبث أن استبد بأمر مرسية وخرج عن طاعة أميره^(١١٨). وحاول المعتمد بن عباد استعادة سلطته المطلقة في تلك المنطقة، وتوجد لدينا تفاصيل وافية عن تلك المحاولات لاستعادة مرسية مستغلاً قوة المرايطين. وقد ذكر هذه التفاصيل ابن الأبار^(*) في الحلة ونقلها المؤرخ غاسبار روميرو على ما يبدو بقوله: "وحشد المعتمد ابن عباد جملة من جنوده ومن الجنود الذين تركهم ابن تاشفين في الأندلس محاولاً استعادة سلطته في مرسية. وقد اتجه المعتمد إلى مدينة لورقة ولكنها استطاعت الصمود في وجهه وامتنعت عليه، فغادرها إلى مرسية وضرب حولها الحصار، ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرايطين إلى جانبه، وأن يقنعهم بأن يتركوه في سلام^(١١٩)".

ولتلك الأسباب رأى المعتمد أن يستجد بالمرايطين مرة أخرى. فعبر البحر لمقابلة ابن تاشفين. ذكر ابن الأبار^(١٢٠) أنه اجتمع بأمر المسلمين في شمال المغرب الأقصى على وادي (سبوا) في منعطف فيه يعرف (بالدخلة). وشكا له ما يتعرض له المسلمون في تلك المنطقة "وعظم له شأن لبيب^(١٢١) وعاقده على أن يأتي عليه بنفسه برجاله".

وكانت وفود المسلمين من أهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة قد غادرت الأندلس واجتمعت بأمر المسلمين واسغاثت به ليرد عدوان الأسبان (النصارى) عن أهالي تلك المنطقة. وعاد الجميع إلى بلادهم بعد أن وعدهم ابن تاشفين بتحقيق رغبتهم^(١٢٢).

عبر ابن تاشفين البحر للمرة الثانية استجابة لابن عباد والمسلمين في تلك المنطقة، إلا أن الروايات مختلفة حول تاريخ هذا العبور. ذكر ابن الخطيب أنه كان في ربيع الأول من عام ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م^(١٢٣). بينما ذكر ابن الأبار هذا العبور بقوله: "وفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، حرك المعتمد ابن تاشفين للغزو بعد أن أجاز إليه البحر..."^(١٢٤). مما يلفت النظر في هذا التاريخ الذي قدمه ابن الأبار أنه مخالف لسير الأحداث التي تمت في الأندلس في تلك الفترة. فمن المعروف لكل الباحثين في التاريخ الأندلسي أن ابن تاشفين قد قرر إسقاط ملوك الطوائف عن عروشهم بعد عام من عودته من حصار لبيط (٤٨٢ هـ/١٠٨٩ م). وكان فتح غرناطة وهي أول دولة من دول الطوائف تسقط في أيدي المرابطين عام ٤٨٣ هـ. وقد تظاهر قائد المرابطين قبل فتح المدينة أنه متجه نحو طليطلة للجهاد في تلك المنطقة. ويبدو أن ابن الأبار قد اختلط عليه الأمر فذكر تاريخ العبور الثالث للقوات المرابطية. ولعل كلمة (الغزو) التي وردت في نص ابن الأبار المذكور تفسر أمر ذلك الاختلاط^(١٢٥).

وعندما استقر ابن تاشفين بقواته في الجزيرة الخضراء^(١٢٦) راسل ملوك الطوائف يخبرهم بقدمه ويطلب منهم الاستعداد واللقاء عند حصن لبيط^(١٢٧). ثم غادر بقواته إلى مالقة^(١٢٨) بعد أن وافاه ابن عباد حيث انضمت إليه قوات الأمير تميم صاحبها^(١٢٩) وابن صمادج صاحب المرية^(١٣٠) كذلك وصل إلى ذلك المكان رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان^(١٣١) كما وصل ابن رشيق صاحب مرسية بقواته ومعه عدد كبير من النجارين والبناءيين والحدادين للاشتراك في الأعمال التي يتطلبها الحصار^(١٣٢).

وهكذا أجمعت الروايات على توافد أمراء الطوائف جميعاً للاشتراك في الهجوم على حصن لبيب. ولم يتخلف أحد من الأمراء في هذا الحصار. إلا صاحب روض القرطاس،^(١٣٣) انفرد برواية تقول بتخلف ابن الأفطس صاحب بطليوس عن هذه الحملة، مما يدعو إلى التساؤل. فابن الأفطس هو من أصحاب المبادرة في استدعاء المرابطين للدخول إلى الأندلس، مما يشك في تخلفه عن هذا الحصار. أم لعله كان يرقب النتائج لعله أن المستفيد من تلك الجهود هو ابن عباد؟

وبذلك اتفقت كلمة الأمراء على استدعاء ابن تاشفين وتوحيد الجهود لإنشاء جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الزحف الأسباني.

سارت القوات المشتركة قاصدة حصن لبيب، وبعد وصولها ضربت الحصار حوله وشنّت الغارات عليه من كل ناحية طوال أربعة أشهر^(١٣٤). ولكن المسلمين لم يستطيعوا اقتحامه أو يرغموا حاميته على الاستسلام. وانتهى الحصار والقتال من (نصيب المجانيق والعرادات، وحتى لم يبق عمل يرام به من اقتحام المعازل إلا صنع)^(١٣٥). حتى أن ابن صمادج (أتى بفيل أقامه وخرق به العادة، وفي كل ذلك لا ينجح عمل ولا يظهر فيه المسلمين فرصة)^(١٣٦)، كل ذلك والخلاف على أشده بين الأمراء المجتمعين. وحاول المتخاصمون الأندلسيون من شتى الفئات استغلال قوة المرابطين لمصلحتهم وتوجيهها بما يتفق وتحقيق مطامعهم الخاصة، وقد عمدوا في ذلك إلى أساليب مختلفة، كاستمالة القواد البارزين في الجيش المرابطي بالمال والهدايا أو التقرب إلى الفقهاء، الذين صحبوا ابن تاشفين في تلك الحملة. كذلك كان الفقهاء بدورهم يوغرون صدر ابن تاشفين على ملوكهم. وقد صور الأمير عبد الله المعاصر، حال سلاطين الأندلس في تلك الفترة أصدق تصوير: (وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها مغاث سلاطين الأندلس ورعيّتهم في ذلك يأتون أفواجا شاكين لما وجدوا لمن استندوا إليه، فالراضي منهم يلتبس الزيادة والساخط يرجو الانتقام)^(١٣٧).

من أبرز الخلافات ما وقع بين المعتمد وابن رشيق عامله المتمرّد في مدينة مرسية. فقد شكّا كل منهما صاحبه إلى ابن تاشفين ليحسم القضية لصالحه. ولجأ كل منهما إلى المناورة لتحقيق أهدافه^(١٣٨). فقد بذل ابن رشيق الأموال للمرابطين وتقرب من سير بن أبي بكر وبالف في إكرامه على حد قول الأمير عبد الله^(١٣٩).

ثم خلع طاعة أميره ابن عباد وأعلن ولائه لابن تاشفين والدوة له على منابر مدينته، قاصداً بذلك إحراج ابن عباد والتمكين لنفسه في تلك المنطقة. واحتج بقوله: لم يقدمني -ابن عباد- إلى مرسية^(١٤٠) وزعم أن أهل المدينة هم الذين اختاروه بأنفسهم بعد أن قدمه ابن عمار^(١٤١) ولعله كان يقوم بالأعباء للاحتفاظ بمرسية. يذكر الأمير عبد الله أن ابن رشيق قال أثناء الحصار: "أريد أن أكون صنيعة وأدخل في جملتك ثم أبلغه بعد ذلك مع رسوله لو أنك تقبل من تخلف فيها لأقام الخطبة باسمك وكانت في طاعتك" لكن الأمير رفض طلبه على حد زعمه^(١٤٢).

أما ابن عباد، فقد اتهم ابن رشيق باتصاله مع الفرنجة (ولاسيما أن معونته للروم بليبث لم تخف على أحد)، يعتقد أن ببقائها يثبت في مرسية، فكان يسيروهم ويقويهم بما يعجزون عنه، إبقاء لرمقهم، وخوفاً من الداخلة عليه بفقدهم^(١٣٤) كما ذكر صاحب غرناطة. لكن الأمير المرابطي الذي حرص في جميع تصرفاته على التمسك بالشرع، والظهور بمظهر الزاهد في ملك الأندلس لم يتورط في تلك المناورة. ورأى أنه لا ينبغي أن يفسد الأمر بينه وبين المعتمد. لذلك أنكر على ابن رشيق قيامه بالدعوة له، لأن ذلك يوقع بينه وبين المعتمد الشحنة^(١٤٤).

وقد أدرك ابن تاشفين أن ابن رشيق لم يفعل ذلك إيثارة له، بل لإشغاله عن نفسه بعد أن صح لديه اتصاله بالروم ومد يد العون لهم. لذلك أمر بإلقاء القبض على ابن رشيق بعد استشارة الفقهاء الذين أفتوا أنه ناكث للعهد (بعد دخوله في البيعة للمعتمد أول أخذه لمرسية)^(١٤٥).

استغاث ابن رشيق بالأمير ابن تاشفين، فأجابه: لو كان لك حق عندي لوهبته لك، غير أنها أحكام السنة لا أستطيع إزاحتها عن مراتبها^(١٤٦) وأمر بتسليم ابن رشيق للمعتمد مشترطاً له الإبقاء على حياته، كما أرسل إلى أهل مرسية يأمرهم بالرجوع إلى صاحبهم المعتمد والطاعة له، إثر توجه الراضي بن المعتمد إلى المدينة لتسلم زمام الأمور فيها بدلاً من ابن رشيق^(١٤٧). ولكن ذلك أدى إلى انسحاب الجنود التابعين لابن رشيق من الحصار. وعمد أشياخ ابن رشيق الذين اعتصموا في مرسية إلى قطع لميره (التموين) عن الجيش المحاصر فدبت الفوضى في صفوفه نتيجة المجاعة، وموجة الغلاء الفاحش^(١٤٨). وقد صور الأمير عبد الله الذي اشترك في ذلك الحصار، اضطراب المعسكر الإسلامي بقوله:

ونحن أحوج ما كنا إليه للإنفاق، ولا سيما في تلك المجاعة التي عدت فيها الأوقات إلا بالشراء كل يوم، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع وطالت تلك المحنة الملعونة فإنها منلق أبان الطبيب من الخبيث، وكشف العورات فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ولا الرعية إلا تسلطاً... وكانت مقدمات سوء وزماناً على السلاطين عسيراً^(١٤٩).

كذلك خشي الأمراء أن يصيبهم ما أصاب ابن رشيق بسبب المؤامرات والفسائس التي كان يقوم بها الفقهاء^(١٥٠) فالفقيه ابن القليعي^(١٥١) مثلاً: قد ثار خباؤه بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد^(١٥٢). وكان الفقيه القليعي قد قدم بصحبة أميره عبد الله لمتزلته عند أمير المسلمين. وكان القليعي كثير التردد على مضارب ابن تاشفين مقدماً له النصيحة والمشورة.

وقد أصبح القليعي بعد أن شور في أمر ابن رشيق مصدر تهديد للأمراء الطوائف. فقد كان يخاطب رعاياهم بأن لا يدفعوا شيئاً من مغارم الإقطاع مما سبب لهم الأذى. وقد ذكر الأمير عبد الله ما كان يقاسي منه الأمراء نتيجة لذلك بقوله: "ولقد كان القليعي في تلك المحلة يخاطب إخواننا بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً، ويعدم بما كان فلما كان يأتيهم

الحفز منا، ويقعدون بنا كما أكثر القليعي من الإشارة لما أصاب ابن رشيق على يديه، وأنه على استعداد للإفتاء بأمرهم" وإن جعل لنا مجلس لغيره فعلنا به مثل ذلك^(١٥٣). وكانت كلماته هذه كما قال الأمير عبد الله: "مما أوحشنا وغيّرت أنفسنا عليه، مع تهديد تلك السفارة وضربه الأمثال، وجدة معانيه واستطالة لسانه". وكان الأمراء لا يستطيعون أن يشكوه إلى الأمير ابن تاشفين دون تقديم بينة أو برهان فتكون له الحجة عليهم مما يضعف موقفهم أمام أمير المسلمين^(١٥٤).

ولا شك أن الخلاف الذي نشب بين المعتمد وابن رشيق واعتماد كل منهما على المرابطين لتدعيم موقفه^(١٥٥)، قد أدى لإقامة طويلة حول الحصن، وهذه الإقامة قد سمحت للتناقضات بالبروز "منها ما وقع بين الأمير تميم صاحب مالقة وأخيه عبد الله صاحب غرناطة". فقد تقدم الأمير تميم بشكوى إلى ابن تاشفين لينصفه من أخيه في الميراث الذي تركه والداهما. وكان قد ألح في طلب ذلك إثر موقعة الزلاقة وأعاد القول أثناء الحصار ولكن الأمير لم يحفل بشيء^(١٥٦).

وكذلك وقع خلاف بين المعتمد والمعتصم صاحب المرية حول بعض المعائل، ولكن الأمير لم ينظر في هذا الأمر فانفصلا دون أن يتوصلا إلى اتفاق^(١٥٧).

أدت تلك الخلافات إلى زعزعة صفوف المعسكر الإسلامي وعلى فشل الحصار،^(١٥٨) مما جعل ابن تاشفين يسيء الظن بالمعتمد وتساوره الشكوك في إخلاصه لحركة الجهاد. فقد حاول أن يستغل نصر الزلاقة وأن يوجه جهود المرابطين لتحقيق مآربه الخاصة بتوجيه الحملة نحو حصن لبيط ليس حياً بالجهاد ومدافعة الأسبان (النصادي)، بل ليتخلص من الغارات المستمرة التي كان يشنها فرسان ذلك الحصن على بلاده، وليتخلص من عامله ابن رشيق الذي استبد بالأمر دونه في مرسية. لذلك أدرك (أي ابن تاشفين) أنه انساق وراء أطماع المعتمد الذي تسبب في إبقاء الفرقة في صفوف المسلمين بنزاعه الخاص مع ابن رشيق وأدرك ما يرمي إليه المعتمد حين قال: "قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعه وأن بلاده ذات معائل صعبة"^(١٥٩).

لم يكن ما حصل في لبيط بداية الخلاف في الرأي بين ابن تاشفين والمعتمد. بل لقد ظهر ذلك جلياً أثناء معركة الزلاقة نفسها، فقد طلب ابن عباد من أمير المسلمين ملاحقة العدو المنهزم للإجهاز عليه^(١٦٠). بينما تريث ابن تاشفين في الأمر^(١٦١). ولم يلاحق فلول الجيش خشية "أن يهلك العدو الذي من أجله استدعي فيقع الاستغناء عنه" على حد قول صاحب الروض المعطار. بينما يمكن تعليل ذلك بأن التقاليد التي يتبعها المرابطون في القتال تجعلهم يأنفون من تعقب العدو المنهزم وطعنه من الخلف وهو يولي الأدبار^(١٦٢).

لذلك انسحبت القوات المشتركة في الحصار عن الحصن، خاصة بعد أن وردت الأخبار عن تقدم الفونسو بقواته لإنقاذ المحاصرين، فأثر ابن تاشفين أن ينسحب بقواته إلى لورقة^(١٦٣) بعد أن أدرك عدم جدوى الاشتباك مع الفونسو في ظل هذه الفرقة، بينما تقدم الفونسو وأنقذ من بقي في الحصن حياً. قم عمد إلى تخريب أسواره وانسحب إلى مدينة طليطلة، دون أن يشتبك مع القوات المشتركة. وفي أثناء ذلك دخلت قوات ابن عباد إلى الحصن إثر انسحاب الفونسو منه^(١٦٤).

رغم النتائج التي أسفرها الحصار، نرى الشاعر ابن حمديس^(١٦٥) يمدح المعتمد ويشيد بالنصر الذي حققه المسلمون^(١٦٦)، ويبدو أن ابن حمديس لا يجانب الصواب حيث اعتبر النتيجة نصراً لابن عباد، لأنه حقق أهدافه من تلك الحملة، بينما اعتبر ابن تاشفين أن فشل الحصار يعود إلى تخاذل ملوك الطوائف وتناحرهم، لذلك رفض طلب الملوك إبقاء قوات مرابطية في الأندلس لمتابعة أعمال الجهاد، كما حدث بعد انتصار الزلاقة بقوله: "أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم"^(١٦٧) ثم غادر لورقة إلى الجزيرة الخضراء، وعبر إلى العدو المغربية عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م.

إن فشل الحصار كان نهاية لمرحلة ما يسمى توحيد الجهود أو الجبهة المشتركة لمرحلة جديدة هي مرحلة التدخل المباشر في الأندلس وإسقاط دول الطوائف.

سقوط إشبيلية بيد المرابطين:

بعد عودة ابن تاشفين إلى المغرب، رأى الفونسو أن الوقت مناسب جداً للعودة إلى سياسته القديمة الرامية إلى إضعاف دول الطوائف، كي تسقط كالثمرة الناضجة بعد أن عصفت رياح الفرقة بالقوى الإسلامية. فأرسل قائده (البرهانس) مهدهداً صاحب غرناطة باحتلال وادي أش^(١٦٨) إذا لم يدفع الأموال المستحقة عليه. بينما أرسل قواته لتقوم بأعمال التخريب في أملاك ابن عباد^(١٦٩). في الوقت الذي عاقد فيه صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق بعد أن دفعوا ما سلف له عندهم^(١٧٠). ورغم الخطر الأسباني، فقد عاد ملوك الطوائف إلى منازعاتهم القديمة وإلى حبك المؤامرات والدسائس والكيد لبعضهم البعض. ذكر الأمير عبد الله صاحب غرناطة أن أخاه تميم صاحب مالقة أرسل إلى القاضي ابن سهل خمسين متقالاً ليستميله إلى جانبه ليقوم بالحجة عليه، لكن ابن سهل أعرض عن ذلك^(١٧١).

كما نشب خلاف بين ابن عباد وصاحب غرناطة بسبب تدخل الأخير في أمر مرسية^(١٧٢). وقد صور صاحب الذخيرة المعاصر فساد ملوك الطوائف وتنازعهم بقوله: ولم يزل ديارهم على ما ذكرت يستشري وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسري حتى أذن الله لأmir المسلمين رحمه الله فساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصاف لكواف المسلمين من فعلهم الذميمة^(١٧٣).

ورغم فرقة الأمراء وتنازعهم فقد اتفقوا على الوقوف في وجه ابن تاشفين على حد قول ابن خلدون، فقطعوا الميرة عن جنوده ومحلاته التي تركها في الأندلس وعمدوا إلى تحصين بلادهم خشية قدومه لأخذها^(١٧٤).

أما الأوضاع الداخلية لتلك الدول في تلك الفترة فقد كانت تتدرج بأسوأ العواقب، نظراً للسياسة التي اتبعها أمراء تلك الدول. فقد ثار يهود مدينة أليسانة^(١٧٥) وحملوا السلاح عندما فرض الأمير عبد الله صاحب غرناطة ضريبة جديدة باسم التقوية^(١٧٦)، إضافة

إلى ثورة مؤمل^(١٧٧) في مدينة لوشة^(١٧٨) وقيام الثائر نعمان عليه في بعض الحصون ودعوته للمرابطين^(١٧٩). بينما استمرت المؤامرات التي كان يدبرها الفقهاء ضد ملوكهم منها: ما قام به القليعي، فقد أخذ يسعى لنفسه ويحيك الدسائس ضد صاحب غرناطة ويهدده بالمرابطين. فاضطر الأمير عبد الله إلى إلقاء القبض عليه وسجنه في القصر، ولكنه أرغم على إطلاق سراحه تحت تأثير والدته، ففر إلى قلعة (يحصب) من أملاك ابن عباد ثم قصد قرطبة وراسل ابن تاشفين من مقره الجديد^(١٨٠). بعد علم من عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب، اتخذ قراره بتصفية ملوك الطوائف وإنزالهم عن عروشهم، وقد أثر عند ملاقاته لهم، أن يأخذ كلاً منهم على انفراد في الوقت الذي لم تنقطع المؤامرات والدسائس التي كان يدبرها الخصوم الأندلسيون للنيل من بعضهم.

عبرت القوات المرابطية البحر للمرة الثالثة في أول عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وكان هدف هذا العبور يختلف عما سبقه فهو لم يكن تلبية لدعوة من أهل الأندلس أو من أحد ملوكها، بل كان الهدف إنزال ملوك الأندلس عن عروشهم. وقد جرت عادة بعض المؤرخين^(١٨١) أن يذكروا أن الأمير يوسف بن تاشفين، قد عبر البحر بنفسه على رأس هذه الحملة بعد أن اتخذ قراره بتصفية تلك الدول الضعيفة في الأندلس، إلا أنه من المستحسن مناقشة هذا الرأي قبل سرد الأحداث التي أدت إلى دخول الأندلس في دولة المرابطين.

من المعلوم أن مدينتي سبته وطنجة كانتا بمثابة مراكز أمامية هامة على حدود المرابطين الشمالية ولا يفصلها عن بلاد الأندلس سوى بحر الزقاق^(١٨٢) (مضيق جبل طارق). حتى أن الجزيرة الخضراء كانت تبدو للناظرين من مدينة سبته^(١٨٣) وكان يربط في هاتين المدينتين بعض الفرق العسكرية المدربة لتكون على استعداد لتلبية أية نداء للعبور إلى الأندلس، كما حصل عند اشتراك القوات المرابطية في معركتي الزلاقة وحصن لبيب. فقد جمع ابن تاشفين الرجال والأقوات حول مدينة سبته ثم عبر

على رأس قواته إلى الأندلس^(١٨٤). ويبدو أن الأمر هذه المرة لا يختلف عما سبقه. وقد نقل ابن تاشفين مقر قيادته إلى سبته^(x) وطنجة ولكن كما يبدو لا يعبر البحر كما فعل في السابق بل ليرقب المعركة التي ستدور رحاها على أرض الأندلس، وكى يرسل أوامره للقائد الأعلى على جناح السرعة أو ليتدخل بنفسه إذا اقتضت الضرورة.

ورغم ما ذكر بعض المؤرخين عن جواز ابن تاشفين الثالث إلى الأندلس وأنه لم يغادر مدينة سبته على رأس قواته المتجهة إلى الأندلس بل أقام فيها "مترقباً لأبائهم ومتشوقاً لما يحدث عنهم"^(١٨٥).

إلا أن صاحب الحل الموشية يذكر أن ابن تاشفين التقى بابن عباد في الجزيرة الخضراء فقدم له ابن عباد الضيافة وبالف في إكرامه. ثم يذكر أن ابن عباد قد قدم بصحبة المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة لتهنئة ابن تاشفين بفتح المدينة^(١٨٦) ولعل الأمر اختلط على المؤرخين، فذكروا غرناطة بدلاً من الجزيرة الخضراء التي من المحتمل أن الأمير ابن تاشفين قد قصدها من سبته، بعد أن تم لقادته فتح غرناطة ثم عاد أدراجه إلى المغرب، بعد أن اطمأن أن قادته قادرون على متابعة الفتح.

ورغم أن الأمير عبد الله صاحب غرناطة قد شهد بنفسه تلك الأحداث، فهو لم يقدم أي نص نتخذه دليلاً على جواز ابن تاشفين الثالث، بل إن الأمير عبد الله نفسه، يسوق بعض العبارات التي يفهم منها أنه لم يقابل ابن تاشفين عند سقوط غرناطة، بل أرسله قرور المرابطين إلى الجزيرة الخضراء لهذه الغاية قائلاً:

"تنتظرون بها السلطان حتى يرد عليكم" وبما أن تلك المقابلة لم تتم أرسل صاحب غرناطة إلى سبته بعد أن قيل له: "فيها تنتظرون الأمير"^(١٨٧). لهذا كله نرى أنه من الأرجح أن يكون الأمير ابن تاشفين قد أقام في مدينة سبته، أثناء تنفيذ مخططه الرامي إلى إسقاط ملوك الطوائف.

غادرت القوات المرابطية مدينة سبته^(١٨٨) وعلى رأسها عدد من أعلام قواد المرابطين: كسير بن أبي بكر وأبي عبد الله بن الحاج وجرور الحشمي وأبي زكريا

بن واسينوا... وقصدت هذه القوات أرض الأندلس بعد أن احتلت جزيرة طريف^(١٨٩). وتظاهر قائد المرابطين أنه متجه نحو مدينة طليطلة للجهاد ولم يكشف عن أهدافه الحقيقية. ولم يشارك أمراء الطوائف في هذه المسيرة لأن ابن تاشفين لم يطلب منهم المشاركة كما فعل في المرات السابقة^(١٩٠). ولعل قائد المرابطين كان يهدف من توجيه قواته إلى تلك المدينة إيقاع الذعر في صفوف القوى المعادية ومنعها من أن تقدم العون لأي من أمراء الطوائف. بعد ذلك اتجهت قوات المرابطين نحو غرناطة دون أن تشتبك في معركة حاسمة مع القوات الإسبانية^(١٩١). وكان الأمير عبد الله صاحب غرناطة قد أيقن أن أمير المسلمين ابن تاشفين لن يتركه، خاصة بعد أن علم بما يقوم به من تشييد الحصون وشحنها بالمقاتلة والعتاد^(١٩٢).

وقد برر الأمير هذه السياسة بقوله: (ليس من الممكن أن يتعرض أمير المسلمين أحداً من سلاطين الأندلس إلا بعد إيرامه لأمر الرومي، ولابد عند مناظرتهم من فرج، أن غلب المرابط لم يفتأ الدخول في طاعته، ولا أسدينا إليه ما تزم عاقبته أكثر من الاحتياط على بلادنا والمدارة عليها، فلا الحمار سقط ولا الزق انخرق. وإن غلب الرومي كنا منه على حذر— وقد نفعا ما أبرمناه من هذا البنيان والتشييد، فسيكون بذلك حماية وإنجاز إلى غير إذ البنيان مع المرابطين لا ينفع^(١٩٣)). لكن الأمير بعد ذلك على حد زعمه، على مساعدة الفونسو، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فدفع له جزيرة ثلاث أعوام سبقت من ماله الخاص^(١٩٤) خوفاً من أن تشور الرعية، وتكون مقدماتها بمركوش -مراكش- شاكون "أخذ أموالنا وأعطاه للنصارى"^(١٩٥).

وقد قبل الفونسو المال والهدايا التي أرسلها صاحب غرناطة^(١٩٦) وأقسم بجميع أيمانه أن يشد اليد عليه في ملكه وأن ينهض إليه بنفسه ويبدل جهده في نصره^(١٩٧). وقد زعم الأمير كذلك أنه خاطب المعتمد بن عباد وأعلمه بجلية الأمر مع الفونسو وحذره من انتقامه^(١٩٨).

كما كاتب أمير المسلمين ابن تاشفين وصرح له مادفت إليه الضرورة من مصانعة

الفونسو. وقد وصل جواب ابن تاشفين إلى الأمير الزيري محذراً من عاقبة مداخلته مع الروم بقوله "أما مراهنتك وقولك الباطل، قد علمناه وسنعلم عما قريب كيف ترضى الرعية، وما تصنع إذ زعمت أنك نظرت لها. ولاتسوّف فإن هذا قريب غير بعيد (١٩٩)".

لم يقنط الأمير عبد الله واستمر يرسل ابن تاشفين وبين له أن مابلغه عنه إنما هو من تدبير ابن القليعي وابن مسكن "فإنهم لا ينقلون إلا على شهواتهم".

كذلك ساء ظن المعتمد بن عباد بالأمير عبد الله عندما عاث الفونسو ببلاده في الوقت الذي سلمت فيه بلاد الأمير الزيري (٢٠٠). وقد برر الأمير عبد الله هذا الأمر فيما بعد بأنه لو أراد التعاون مع النصاري لم يصل المرابطون إلى سبته إلا ومدينة غرناطة مملوءة منهم (٢٠١).

وكان ابن تاشفين قبل أن تعبر قواته البحر من سبته إلى الأندلس قد وافقه رسل صاحب غرناطة (القاضي ابن سهل وباديس بن وار وابن تلكاته) يرحبون به ويعدونه بالمشاركة في أعمال الجهاد (٢٠٢). وقد اجتمع قائد المرابطين فور وصوله إلى قرطبة بالمعتمد بن عباد وسأله عما لهج به الناس في أمر صاحب غرناطة ثم أرسل إلى صاحبها الأمير عبد الله على لسان ابن تاشفين أن "أقبل إلينا ولا تتأخر ساعة واحدة (٢٠٣)".

لم يلب الأمير عبد الله دعوة ابن تاشفين وأرسل وفداً اعتذر عن عدم تمكنه من الحضور، ففرّع الأمير ابن تاشفين الوفد وأمر بإلقاء القبض على أفراداه قائلاً: "إنني غزوته كما تغزو الفونس، والذي يقدر عليه فليصنع (٢٠٤)".

بعد ذلك اتجهت القوات المرابطية قاصدة غرناطة وفي الطريق إليها فتحت مدينة اليسانة أبوابها للمرابطين. أما بقية المعقل والحصون فتناثرت كلها انتثار العقد ووصلت طلائع الجيش إلى مدينة غرناطة وبقيت حاحيات مرابطية في الحصون التي

سقطت بيدهم لحراستها. وقد طلب الأمير ابن تاشفين من صاحب غرناطة أن يخرج إليه وأن يتخير من بلاده مكاناً ينزل فيه^(٢٠٥). وذلك في ١٣ رجب عام ٤٨٣ هـ^(٢٠٦).

أيقن الأمير عبد الله استحالة المقاومة خاصة الحالة داخل المدينة^(٢٠٧) تنذر بالسوء^(٢٠٨)، لذلك خرج من المدينة للقاء ابن تاشفين بعد أن كتب له الأمان^(٢٠٩) وحمل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى سبته ومنها نقل إلى مكناسة الزيتون^{(٢١٠)(x)}.

بعد ذلك استولى المرابطون على دولة مالقة ولم يشفع لصاحبها تقربه من المرابطين وإنه أول من ضرب الدراهم المرابطية في الأندلس. فأخذت المدينة فجأة وكبل صاحبها، ثم نفي إلى مدينة السوس في المغرب^(٢١١). وبذلك دخلت غرناطة ومالقة في دولة المرابطين.

كان ابن تاشفين قد وعد المعتمد بن عباد أن يعطيه غرناطة وقال له: "أنا رجل مغربي وليس قدمني أخذ مال ولا بلاد! ونتوقع عليها من الرومي. وليس غرضي أكثر من تخليصها فإذا صارت في يدي، ولا يمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدو، وضعتها عند ذلك في يدك"^(٢١٢).

وكان هذا من حسن السياسة لأن غرناطة (ليست مما تؤخذ في وقفة واحدة). كما أمل ابن عباد فتبقى المعازل التي طاعت لابن تاشفين بيده وينصرف المرابطون إلى بلادهم^(٢١٣). لذلك لم يحرك ابن عباد ساكناً لنصرة غرناطة وكذلك فعل صاحب المرية فقد أبهتهم أمرها وألقاهم^(٢١٤). وكان الأمير عبد الله صاحبها قد خاطب ملوك الطوائف مستغيثاً بهم "فاللوم به وغداً بهم" أجابوا "إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن برأنا الله منها"^(٢١٥).

عندما لم يعد ابن تاشفين غرناطة لابن عباد^(٢١٦)، أدرك اللعبة وأيقن أنه التالي. وخاطب صاحبه الأقطس أن ينج بنفسه. مشيراً إلى ما حل بصاحب غرناطة^(٢١٧). وعندما طلبه الأمير ابن تاشفين للاجتماع به ماطل في الأمر. واستخدم الحكمة في

جوابه قائلاً: "إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتريد الغزو، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي والآن إنما أنت لي جار مثل باديس وحفيده وأنت أقدر مني على الشر بجنودك فلا يمكنني التفرير بنفسي عسى أنك تريد أخذ بلدي، إذ لاتصلح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس"^(٢١٨).

أيقن ابن عباد أن ابن تاشفين لن يتركه بعد الآن. فأرسل إلى الفونسو يستغيث به وهي كانت علة الجميع على حد قول الأمير عبد الله، حتى أنه زوج الفونسو زائدة^(٢١٩) المسلمة (ابنته أو زوج ابنه المأمون) عربوناً على حسن النية، وكانت بعض القلاع التابعة لابن عباد قد سقطت بيد المرابطين، وأخذت رعية ابن عباد إلى الفونسو، فأجابه ابن عباد بأنه لو فعل ذلك قبل أن تؤخذ بلاده لكان يلام عليه "وأما بعد أني رأيت طلبي في الروم، اضطررتي الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يوماً واحداً"^(٢٢٠).

استشار ابن تاشفين الفقهاء في أمر ابن عباد فأفتوا بغزوه^(٢٢١). وأسندت مهمة الاستيلاء على إشبيلية للأمير سير بن أبي بكر وقد رأى الأخير أنه من الأفضل إحكام الطوق على المعتمد عن طريق اقتحام المدن والحصون التابعة لمدينة إشبيلية أولاً ثم ضرب الحصار عليها (إشبيلية) حتى تسقط بيده.

اتجهت القوات المرابطية قاصدة أملاك المعتمد، واحتلت أولاً، طريف أقصى ثغور مدينة إشبيلية الجنوبية وذلك في شوال عام ٤٨٣ هـ/ديسمبر ١٠٩٠م ونادى الأمير سير فيها بدعوة أمير المسلمين ابن تاشفين^(٢٢٢).

أما القائد جرور الحشمي^(٢٢٣). فقد اتجه بقواته إلى مدينة رندة بناء على التعليمات التي تلقاها من القائد الأعلى سير بن أبي بكر. وقد أحكم جرور حصار المدينة التي كان يدافع عنها الأمير الراضي (يزيد بن المعتمد بن عباد)^(٢٢٤) ولكنه لم يستطع فتحها لأنها كانت من أمنع القواعد الجنوبية التابعة لدولة إشبيلية. وقد استطاع الراضي الصمود في داخل المدينة فاضطر القائد المرابطي أن يقنع بالحصار منتظراً سير

المعارك في الجبهات الأخرى^(٢٢٥). وفي هذه الأثناء كانت قوة مرابطية أخرى، على رأسها القائد بطي بن إسماعيل قد زحفت على مدينة جيان وضربت حواليتها الحصار.

هنا يذكر ابن الخطيب، أنه في أثناء الحصار قدم جيش من قشتاله أرسله ألفونسو لإنجاد مدينة جيان تنفيذاً للاتفاق المعقود بينه وبين ابن عباد. وقد دارت بين الطرفين معركة عنيفة أيد فيها المرابطون. بيد أن صاحب روض القرطاس قد أورد رواية أخرى تقول أن بطي بن إسماعيل، حاصر مدينة جيان حتى دخلها صلحاً. وكتب الأمير سير بن أبي بكر إلى ابن تاشفين يخبره بفتح المدينة^(٢٢٦).

بعد فتح مدينة جيان طلب الأمير سير من القائد بطي بن إسماعيل^(٢٢٧). التوجه بقواته نحو قرطبة. وقد زحفت القوات المرابطية وضربت الحصار حول المدينة المذكورة وكان الفتح الملقب بالمأمون ولد المعتمد بن عباد^(٢٢٨)، الذي أسندت إليه مهمة الدفاع عن المدينة، كان قد اتخذ كافة الاحتياطات الممكنة للدفاع عن المدينة، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله إلى الحصن المذكور القريب من أملاك صاحب قشتاله، تحسباً لما قد تتجلى عنه الأحداث، فيكون باستطاعته الالتجاء إلى الحصن المذكور ليلوذ بحماية الفونسو في الوقت المناسب^(٢٢٩).

شدد القائد المرابطي الحصار على المدينة، خاصة بعد أن سقطت بيده القلاع والحصون المحيطة بها. والواقع أن المدينة لم تستطع الصمود طويلاً أمام المرابطين كما قال دوزي^(٢٣٠). وبروفنسال^(٢٣١) لأن أهل المدينة لم يقاوموا سوى مقاومة طفيفة واستطاع المرابطون دخول المدينة.

وقد تصدى المأمون للمرابطين الذين دخلوا المدينة بمداخلة من بعض أهلها، كما ذكر الأمير عبد الله^(٢٣٢) وقد قتل المأمون خلال الهجوم والسلاح في يده مدافعاً عن مدينته، فرفع المرابطون رأسه على رمح، كما قتل معه في تلك المرة وزيراه ابن زيدون وابن أبي بكر^(٢٣٣). في الوقت الذي انتزعت فيه قرطبة انتزاعاً^(٢٣٤)، يوم

الأربعاء ٣ صفر من عام ٤٨٤ هـ الموافق ٢٦ مارس سنة ١٠٩١م كما ذكر ابن الخطيب^(٢٣٥). وابن أبي زرع^(٢٣٦). ووافقها بروفنسال ودوزي الذي عاد إلى كل المصادر العربية التي ذكرت تاريخ بني عباد.

بعد سقوط قرطبة، استطاع المرابطون الاستيلاء على أبدة وبياسة وشقورة في شرقي قرطبة وسقط في يدهم كذلك حصن البلاط والمدور في غرب المدينة، كما بعث فاتح قرطبة حملة مؤلفة من ألف فارس إلى قلعة رباح فسقطت في أيديهم. وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضي الوادي الكبير، وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ماعدا رندة وقرمونة وإشبيلية. لذلك قرر الأمير سير بن أبي بكر منازلة مدينة قرمونة^(٢٣٧). التي تعتبر من أمنع قواعد إشبيلية الشمالية، وقد استطاع دخول المدينة عنوة في السابع عشر من ربيع الأول / ١٠ أيار سنة ١٠٩١م وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية.

حاصر الأمير سير مدينة إشبيلية بقوات ضخمة. وكان يعتقد عندما كلف بهذه المهمة كما ذكر صاحب روض القرطاس ووفيات الأعيان أن ابن عباد سيلقاه خارج إشبيلية مرحباً ويقدم له الضيافة والإكرام كما جرت عليه العادة في المرات السابقة^(٢٣٨). ولكنه أحجم عن ذلك بالطبع وأخذ يحصن المدينة ويستعد للمعركة المرتقبة مع المرابطين. وقد راسل الأمير سير ابن عباد وطلب منه الدخول في طاعة أمير المسلمين، وتسليم البلاد دون قتال. وعندما لم يوافق ابن عباد على تلك الشروط، اقتحمت القوات المرابطية أملاك ابن عباد واحتلت المدن التي سبق الحديث عنها. وكان ابن عباد قد أرسل إلى الفونسو يستغيث به ويعدّه بإعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد إن كشف عنه ما هو فيه من الحصار^(٢٣٩). وقد اشتد الأمر على ابن عباد بعد سقوط مدينة قرطبة، التي كان يأمل أن تصمد في وجه المرابطين، وكان قد أوصى ابنه المأمون قائلاً: "لا تجزع فالموت أهون من الذل وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر"^(٢٤٠).

ولكن المعتمد رفض تسليم المدينة وقرر الدفاع عن ملكه وخاصة بعد أن بلغه الفونسو قد قرر مساعدته للحيلولة دون وقوع مملكة إشبيلية بيد المرابطين، وأرسل كذلك حملة كبيرة على رأسها (الباراهائيس) الذي يعتبر من كبار قاذبيه وأبرعهم. وتذكر الروايات الإسلامية أن تلك الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل^(٢٤١).

وعندما علم الأمير سير بقومهم انتخب من جيشه (عشرة آلاف فارس) وقدم عليهم إبراهيم بن إسحاق اللمتوني وقد التقى الجمعان بالقرب من حصن المدور^(٢٤٢). ودارت بين الطرفين معركة عنيفة فقد فيها المرابطون خيرة فرسانهم، ولكنهم تمكنوا في النهاية من انتزاع النصر^(٢٤٣).

وصلت هذه الأنباء لأسماع ابن عباد في الوقت الذي أضرم فيه الخصوم نار الثورة داخل المدينة، كما عمل بعضهم على تخريب سور المدينة وأحدثوا ثغرة فيه عند باب الفرج بالقرب من النهر، مما سمح لثلة من المرابطين الدخول إلى المدينة. وعندما علم المعتمد بذلك، خرج لتوه مسرعاً لسد تلك الثغرة والقضاء على الجنود الذين تسللوا منها، وقد قاتل المعتمد مع مرافقيه الشجعان قتال الأبطال^(٢٤٤). وجرح في المعركة لأنه لم يكن يرتدي ما يدفع به عن جسمه واستطاع في النهاية القضاء على من تسلل من جند المرابطين. وقدر لابن عباد أن يشهد في نهاية ذلك اليوم مأساة مدمرة. فقد استطاع المرابطون الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسي في الوادي الكبير وأضرموا فيه النار فاحترقت معظم سفن الأسطول، فاستولى الفرع على سكان المدينة وأخذوا يترامون من شرفات الأسوار على حد قول ابن بسام^(٢٤٥). وجاءت الضربة القاصمة الأخرى من ناحية الوادي الكبير^(٢٤٦). وهو أسهل الأماكن لاقتحام المدينة على حد قول الأمير عبد الله^(٢٤٧). فقد استطاع المرابطون الدخول إلى المدينة من تلك الجهة، ودارت في شوارع المدينة معارك ضارية بين المقتحمين وأنصار ابن عباد في الوقت الذي تصدى فيه ابن عباد لقوة مرابطية على أبواب قصره "مدافعاً عن ذاته، وذاباً عن

حرماته. وظهر يومئذ من بأسه ومن تراميه على الموت بنفسه ما لا يزيد لبشر عليه، ولا يتناهى لخلق عليه" على حد قول ابن بسام^(٢٤٨). وقد ظل ابن عباد شاهراً حسامه حتى قتل ابنه مالكا بين يديه فسلم سلاحه بعد أن أمن على نفسه وأهله وولده^(٢٤٩). شريطة أن يقنع ولديه الراضي والمعتمد بتسليم رندة الحصينة وميرتلة (مارتلة) التي امتنعت على المرابطين. وقد لعبت زوجة المعتمد (اعتماد الرميكية)^(٢٥٠) دوراً بارزاً في إقناع الأميرين على التسليم إبقاء على حياة والديهما المعتمد. وقد قبل الأميران بالأمر الواقع واستجابا لندائهما.

وهكذا سقطت مدينة إشبيلية بعد عام كامل من سقوط مدينة غرناطة إلا أن المؤرخين اختلفوا حول كيفية سقوط المدينة وتاريخ السقوط.

ذكر ابن بسام وهو من المعاصرين في معرض حديثه عن ابن عباد: "دخل البلد على المعتمد يوم الأحد الموافق في عشرين من رجب"^(٢٥١). وواقفه في ذلك ابن الخطيب^(٢٥٢). بينما وضع الأمير عبد الله^(٢٥٣). (وكان منفي في المغرب في تلك الفترة) لذلك يوم الأحد ٢٢ رجب. أما عبد الواحد المراكشي^(٢٥٤). فقد اتفق مع المؤرخين السالفين الذكر في اليوم ولكنه ذكر أنه يوافق الواحد والعشرين من رجب وهذا ما ذكره الشاعر ابن اللبابة (محمد بن عيسى الداني) وهو شاهد عيان لتلك الأحداث. فقد قال في كتابه (نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العادية): "إلا أن كان يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب فعظم الخطب في الأمر الواقع واتسع الخرق على الراقع ودخل البلد من جهة واديه"^(٢٥٥). ولوعدنا إلى الروايات غير الإسلامية لوجدنا أنها تضع لذلك يوم (٧ سبتمبر عام ١٠٩١ م) وهو الموافق ٢٢ رجب. في الوقت الذي أجمع فيه المؤرخون^(٢٥٦). على أن إشبيلية سقطت عنوة بيد المرابطين بعد قتال عنيف. وينفرد صاحب روض القرطاس^(٢٥٧). برواية تدل على أن المعتمد سلم المدينة دون قتال. وقد ذكر ابن الأثير هذه الرواية أيضاً وهذا ما ينفيه الشاعر ابن اللبابة بقوله:

"ودخل البلد ... بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه، وتراميه على الموت بنفسه، مالا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه ...^(٢٥٨)". وهذا ما أكد ابن بسام مبيناً حالة إشبيلية أثناء اقتحامها:

"ثم التوت بالمعتمد الحال أياماً يسيرة بحضرة إشبيلية قد استولى عليهم الفرع، وخامرهم الجزع يقطعون سبلها سياحة، ويخوضون نهرها سباحة، ويترامون من شرفات الأسوار ويتولجون مجابي الأقدار حرصاً على الحياة وحذراً من الوفاة، وكلن يوم الأحد الموفى عشرين رجب المؤرخ، دخل البلد على المعتمد بعد أن جد الفريقان واجتهدت الفئتان في النزال"^(٢٥٩). كذلك وصف ابن خاقان دفاع ابن عباد عن عاصمته بقوله: "ولما انتشر الداخلون في البلد... خرج (أي المعتمد) والموت يستعر في ألقاظه ويتصور من ألقاظه وحسامه يعد بمضائه ويتوقد عند انقضائه، فلقبهم في رحبة القصر... فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً، وملاتهم فرقاً..."^(٢٦٠).

كذلك أكد الأمير عبد الله أن إشبيلية أخذت بعد قتال عنيف، ويستشهد بما قاله فاتحها الأمير سير بن أبي بكر الذي أعجب بقتال المدافعين وبسالتهم: "قلما أخذت قرطبة، انقطع الرجاء، وضائق إشبيلية، ونفذ ما كان بيده من أجل النفقات إلى أن دخلها الأمير سير عنوة بمداخلة من بعض أهلها، وهلك فيها عالم وانكشف الحرم إذ للجيش معرة لا تملك بعد صبرهم على ملكهم. وظهر لسير من اجتهادهم في القتال ما أعجبه، وقال: "لو أني أقصد مدينة الشرك، لم تمتنع هذا الامتناع"^(٢٦١). كذلك ذكر ابن الأثير: "نقل عن مصادر أندلسية أن مدينة إشبيلية لم تستلم للمرابطين" ولم يزل الحصار دائماً، والقتال مستمراً إلى العشرين من رجب، فعظم الحرب ذلك اليوم، واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون من واديه، ونهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سبب أو لبد، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم وسبيت المخدرات، وانتهكت الحرمات".

وهكذا سقطت عاصمة بني عباد بيد المرابطين ودخلت دولة إشبيلية في دولة المرابطين ونفي أميرها ابن عباد^(٢٦٢) إلى المغرب فنزل مدينة مكناسة ثم نقل إلى أغمات حيث كانت وفاته فيها^(٢٦٣).

إن النهاية المأساوية لابن عباد وآل بيته لم تكن كذلك بالنسبة إلى مدينة شبيلية لأنها ستلعب دوراً هاماً في ظل المرابطين والموحدين من بعدهم وسيتمحور حولها تاريخ الأندلس والمنطقة في العديد من الأحداث الجسيمة التي وقعت في شبه الجزيرة الإيبيرية.

الحواشي

١- انظر عن تلك القوى المتصارعة سقوط الخلافة: أحمد بدر، تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري (عصر الخلافة) دمشق ١٩٧٤، ص ٢٢٤-٢٤٧.

٢- محمد المراكشي ابن عذارى، البيان المغرب، تحقيق كولان وبروفنسال وتعليق إحسان عباس في الجزء الرابع، باريس (١٩٢٩-١٩٤٨)، بيروت، ١٩٦٧/ج ٣، ص ١٥٢ سأشير له باسم المؤلف. لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، نشر بروفنسال بيروت. ١٩٥٦، ج ٢، ص ١٣٩-١٤٧. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، ١٩٦٢، ص ٣٦٣ وعصر الخلافة، ص ٢٢٣.

٣- انظر عن هذه الدول، التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الأندلسي، بيروت، ص ٣٢١-٤١٦.

٤- لم يكن لأي واحد من الملوك ما يعتمد عليه من أساس شرعي لإبقاء ولاء الرعية وطاعتها، مما جعل الاعتماد على القوة لا مفر منه في حفظ السلطان. وهذه القوة لا يمكن جمعها من جنود مواطنين خوفاً من تمردهم وعصيانهم. لذلك لجأ ملوك الطوائف إلى استخدام الجنود المرتزقة وانظر عن ملوك الطوائف:

Anwar G. Chejne Muslim Spain (1874), P.50 watt, P 92-94

٥- بلغ عدد الدويلات التي ظهرت في الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية (٥٠) دولة لكن أكثر هذه الدويلات لم تتجاوز مدينة أو عدة قرى، وانظر عن سياسة ملوك الطوائف :

Anwar G. Chejne Muslim Spain (1874), P.50 watt, P 90-94

- ٦- انظر عن دولة بني عباد في إشبيلية: علي بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨، Anwar G. Chejne Muslim Spain, its History, and Culture P.50..
القسم الثاني، المجلد الأول ص ١٣ وما بعد فساثير إله (بالذخيرة) و Muslim Spain, P 58-62
- ٧- انظر عن دولة بني هود في سرقسطة: ابن عذاري، ج ٤، ص ٥٣-٥٥ و Muslim Spain, P 61-63.
- ٨- انظر عنهم Muslim Spain, P 61-63 .
- ٩- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، الترجمة العربية، مراجعة لطفي عبد البديع، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٢٠-١٥٠ وكذلك مجلة (Hesperis) مجلد ١٢، سنة ١٩٣١، ص ٢٣-٢٩.
- ١٠- انظر: R. Menedez Pidaí la Espana del Cid الطبعى الأولى، ج ١، ص ٢٨١ وحاشية رqn ٣.
- 11- Dozy: Histoire des Muslumans d'Espagne.
- ١٢- بروفنسال، المرجع السابق، ص ١٤١ وما بعدها: Muslim Spain, P63-64.
- ١٣- انظر عن الأحداث التي مهدت لقيام دولة بني زيري في غرناطة: عبد الله بن زيري، مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق بروفنسال، دار المعارف بمصر، ص ١٦ وما بعدها، Muslim Spain, P 65-66.
- ١٤- راجع عن نشاط مدينة المرية التجارية: محمد بن عبد الله بن أدريس، صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) تحقيق دوزي خويه، أمستردام، طبعة مصورة ١٩٦٩، ص ١٩٧، ساشير إليه بـ (صفة الأندلس) الروض المعطار، ص ١٨٤.

- ١٥- مقدمة ابن خلدون، ج ٢، ص ٧٥١-٧٥٢.
- ١٦- ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٨١.
- ١٧- المكتبة الصقلية (ليبزج)، ١٨٨٧، ج ١، ص ٨٦٠، وانظر أحمد توفيق المدني، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى - القاهرة، المجلد ٤، العدد ١، ١٩٥١ م.
- ١٨- التبيان، ص ٧٣.
- ١٩- عبد الملك بن الكريبوس التوزري، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، ٩٧١، ص ٨٨.
- ٢٠- التبيان، ص ٧٣.
- ٢١- انظر التفاصيل في التبيان، ص ٦٩-٧٦.
- ٢٢- ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٣٨.
- 23- (Abbadidarum 2-16).
- 24- (Abbadidarum 2:19-20).
- ٢٥- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف، الدار البيضاء، ج ٢، ص ٣٢.
- ٢٦- التبيان، ص ٧٣.
- ٢٧- انظر فيما يختص بالكونت شسند: Sismund, David R. M. Pidal Esp. delcid وكذلك الفصل الذي عقده فين بيدال مع غرسيه بعنوان: Elconde المنشور في مجلة الأندلس (Al-Andalis) مجلد ١٢ سنة ١٩٤٧، ص ٢٧-٤١ وفي المقالة ترجمة لفقرات من الذخيرة، خاصة بالدور الذي لعبه الكونت المذكور.
- ٢٨- وكانت تدفع لألفونسو كضريبة سنوية مقدارها خاضع للمساومة وتأثر بحال الرضى والغضب تحصل من الرعية توأ في أغلب الأحيان. ففي بعض

السنوات فرض الفونسو على عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة مبلغ عشرة آلاف دينار، كما فرض على مفيد ابن ذي النون مائة وخمسين ألف متقال طيبة وخمسمائة مدى طعام له ولجنوده كل ليلة يقيمها، انظر التفاصيل في (التبيان)، ص ٧٦-٧٧.

٢٩- الضريبة المفروضة لدفع مرتبات الجند، هي في الأحوال العادية (جزية) على الرؤوس تسمى (القطيع) وتؤدي مشاهرة، وضريبة على الأموال من الغنم والبقر والدواب...قبالات كل ما يباع في الأسواق. أما نفقات الحروب الداخلية فيكفي أن نذكر أن المظفر بن باديس أنفق لأخذ وادي آش ستة بيوت من المال دراهم ثلثية في البيت الواحد منها مليون دينار ثلثية، انظر التبيان، ص ٥٦.

٣٠- ذكر الأمير عبد الله أن هذيل بن رزين صاحب السهلة قد دفع في شراء قينة حاذقة ثلاثة آلاف دينار. ولما تنازل الأمير عبد الله ليوسف بن تاشفين عن أمواله كانت كما ذكر بنفسه مقادير جسيمة...انظر (التبيان) ص ١٥٦-١٥٨، كذلك أورد ابن بسام في الذخيرة، تفاصيل عن الترف في قصر المأمون بن ذي النون، وساق وصفاً طويلاً لابن حيان نقلاً عن الأديب الذي شهد بنفسه أعمار (ختان) حفيد المأمون...انظر: الذخيرة: ج ٤، القسم الرابع، المجلد ١، ص ١٢٨-١٤١، والمقري في نفح الطيب، ج ٢، ص ٦٧٣.

٣١- التبيان، ص ٧٣.

٣٢- انظر رسالة ابن حزم (الرد على ابن النغريلة اليهودي)، ص ١٧٣-١٧٧.

٣٣- انظر: Asin Palacios وأعمال الأعلام، ص ٢١٨.

٣٤- التبيان، ص ٧٣.

٣٥- التبيان، ص ٧٣.

٣٦- مجهولة المؤلف، الحلل الموشية في ذكرى الأخبار المراكشية، تونس ١٣٢٩هـ، ص ٢٥ أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٢٣٠.

- ٣٧- شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٦، ج ٢، ص ١٨٦. ساشير ب (وفيات الأعيان) ابن الأثير الجزري (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد)، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥، ج ٢، ص ٥٧. ساشير إليه ب (الكامل). نفح الطيب، ج ٢، الذخيرة القسم الرابع، المجلد الأول، ص ١٦٣٧.
- ٣٨- ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٣٨، التبيين، ص ٧٣، الاستقصاء، ج ٢، ص ٣٣.
- ٣٩- الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ١٦٣٠-١٦٩.
- ٤٠- وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٨٦.
- ٤١- الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ١٢١، ابن أبي زرع (أبو الحسم علي بن عبد الله)، الأنبس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٤٣، الاستقصاء ج ٢، ص ٣٢، دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٣٣، ص ٢٦٨-٢٦٩.
- ٤٢- الروض المعطار، ص ٨٦.
- ٤٣- المصدر السابق، ص ٨٥.
- ٤٤- ابن حمدس الصقلي، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٠، ص ٣٣٧، التبيين، ص ٧٢.
- ٤٥- الاستقصاء، ج ٢، ص ٣٧-٣٨.
- ٤٦- وفيات الأعيان، ج ٥٦، ص ١١١-١١٢.
- ٤٧- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق بروفنسال، ص ٥٢، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٨٩، روض القرطاس، ص ١٣٣، بينما ذكر فريق آخر من المؤرخين أن دخول أغمات كان سنة ٤٥٠هـ انظر الحلل الموشية، ص ١٢، ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٣.
- ٤٨- صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٨٧، أحمد ابن القاضي المكناس، جذوة الاقتباس في

ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، ص ٥٢، بينما ذكر صاحب جامع تواريخ فاس أن فتح المدينة قد تم عام ٤٦٠ هـ وهذا خطأ لأن هذا التاريخ الذي ذكره هو تاريخ فتح المدينة في الحملة الثانية التي وجهها المرابطون ضد المدينة التي تمردت على سلطانهم إثر فتحها للمرة الأولى عام ٤٥٥ هـ، جامع تواريخ فاس، طبع بالرم سنة ١٨٧٨، ص ٢٠.

٤٩- مفاخر البربر، ص ٤ البيان المغربي، ابن عذارى، ج ٢، ص ٢٤٠.

٥٠- راجع عن وضعها الاستراتيجي كتاب الروض المعطار للحميري.

٥١- طنجة، مدينة بالمغرب (من المدن القديمة) على ساحل البحر، فيها آثار كبيرة للأول، وقصور وأقباء... وبين طنجة وسبتة ثلاثون ميلاً في البر والبحر نصف مجرى، وتعرف طنجة بالبربرية (وليلي) افتتحها عقبة بن نافع... انظر البكري، ١٠٨-١٠٩، الروض المعطار، ص ٣٩٥ الاستقصاء، ص ١٣٨، ابن الوردي، ص ١٤.

٥٢- غمارة، من شعب مصموده من البربر البرانس، سموا باسم والدهم: عمار بن مصمود وتزعم العامة أنهم عرب غمروا في الجبال فسموا غمارة، وهم في الواقع شعب متميز كانت مواطنه الأصلية على سيف البحر الأبيض المتوسط من حد بلاد الريف إلى المحيط الأطلسي، ثم تمتد على السهول الغربية حيث تصل تامنا حيث مواطن برغواطه في القديم، وقد انحسرت هذه المواطن فصارت لا تتعدى الجبل المعروف بغمارة الواقع شمال المغرب الأقصى شمال مدينة شفشاون من قبائل غمارة، بني زجل وبني زياب، وبني خالد، وبني سلمان،... انظر روض القرطاس، ص ٢١٣، هامش رقم ١٣٤.

٥٣- روض القرطاس، ص ١٤١ ويذكر أنه (في سنة ستين وأربعمائة فتح يوسف جميع بلاد غمارة، وجبالها من الريف إلى طنجة) وفي (سنة خمس وستين غزا يوسف بن تاشفين مدينة (الدمنة) من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل

علودان)، روض القرطاس، ص ١٤٢.

٥٤- راجع عن أخباره الذخيرة: قسم ٢، مجلد ٢، ص ٦٥٧، ابن عذاري، ج ١، ص ٢٥٠، أعمال الأعلام، ص ١٤١، روض القرطاس، ص ١٤٢-١٤٣، ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٢١-٢٢٢.

٥٥- سكوت: يرد هذا الاسم على صور عديدة: سقات، سكات، سقوط، سكوت، وهي الأشهر انظر: مجلة تطوان، العدد (١١)، سنة ١٩٧١، مقالة بقلم المستشرق الأسباني الأستاذ خواكين فاله برميخو (ترجمة عبد اللطيف الخطيب).

٥٦- ورد على المعتضد بن عباد ذات يوم كتاب من (سكوت) صاحب سبته يقول له فيه: إن طلائع المرابطين عسكرت في رحبة مراكش، فاهتم لهذا النبأ حتى قال له أحد وزرائه (كيف يزعجك يا مولاي هذا النبأ ويقلقك وبيننا وبينهم المهامة الغبر وأمواج البحر الخضر) فقال المعتضد بصوت مختنق حزين: "إني على يقين من أنهم سيصلون إلينا يوماً ما وربما تشهد بنفسك هول ذلك اليوم، فاكتب من فورك إلى حاكم الجزيرة، وأمره أن يزيد في تحصين جبل طارق، وأن يكون شديد اليقظة، وعلى تمام الأهبة والاستعداد وأن يراقب عن كثب كل حركة لأولئك المرابطين من وراء المجاز" ثم أخذ يصعد بنظره في بينة ويقول: "ليت شعري من منا ستحل النكبة به أنتم أم أنا" فقال المعتمد: "لا بل أنا جعلني الله فداك الذي أحمل عنك كل كائنة مهما عظمت"، انظر الذخيرة: القسم ٢، مجلد ١، ص ٤٠-٤١.

٥٧- انظر ما أورده ابن بسام عن هذا الخلاف في الذخيرة، قسم ٢، مجلد ٢، ص ٦٥٩، وانظر الاستقصاء، ج ٢، ص ٣٠، وابن خلدون، ج ٦، ص ٢٢١، وما بعدها.

٥٨- الذخيرة: قسم ٢، مجلد ٢، ص ٦٦٠-٦٦١.

- ٥٩- روض القرطاس، ص ١٤٢.
- ٦٠- روض القرطاس، ص ١٤٢، مفاخر البربر، ص ٥٤، الذخيرة، قسم ٢، مجلد ٢، ص ٦٦١.
- ٦١- روض القرطاس، ص ١٤٣، ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٢٢.
- ٦٢- يذكر صاحب روض القرطاس أنه: "لما تواترت الكتب على يوسف بالاستصراخ لنصرة المسلمين ونفي العدة عن مختلق بلادهم بعث ولده المعز إلى سبته في جيش عظيم، فترلها وحاصرها حتى فتحها"، تبين هذه الرواية أن ابن تاشفين فتح مدينة سبته تلبية لدعوة المسلمين في الأندلس لكي يجوز لهم البحر إليهم بينما تدل مجريات الأمور أنه كان يعد العدة لفتح المدينة وقبل ذلك وحتى لو لم تصله الدعوة الضرورية لذلك، روض القرطاس، ص ١٤٤.
- ٦٣- يذكر صاحب روض القرطاس إنه: "من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها... كأنما بناها على الماء صرحاً ممرداً... ووجهها على مدينة طنجة لتختار، ولما رأى أمير المسلمين تلك السفينة، خاطب المعتمد في ذلك فشحن على سبته موتاً ذريعاً وأقامت إزاء أسوارها حصناً منيعاً. فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين قدم أمير المسلمين لقتال سبته أسطولاً فخماً ولقيه العز بن سكوت ببقية جمعة من أسطول طالما أوسع البلاد شراً وملاً أهلها ذعراً، فكان لأول ذلك اليوم ظهور على أسطول المرابطين... وغضب أمير المسلمين...، وتقدمت تلك السفينة (أي سفينة المعتمد) حتى أطلت على أسوارها ورفعت صوتها ببوارها، وأفضت بدولة صاحب سبته إلى سوء قرارها، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ، الذخيرة، قسم ٢، المجلد ٢، ص ٦٦٣. وانظر ما قاله السلاوي نقلاً عن ابن الأثير والحميري عن استعداد ابن تاشفين للعبور الاستقصاء، ج ٢، ص ٣٥.
- ٦٤- روض القرطاس، ص ١٤٤.

- ٦٥- نفح الطيب، ج ٦، ص ١٨٤، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٨٩.
- ٦٦- الروض المعطار، ص ٨٣.
- ٦٧- ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٤، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٨٩.
- ٦٨- الروض المعطار، ص ٨٣.
- ٦٩- انظر فتح المرابطين لمدينة سجلماسة وغيرها في روض القرطاس، ص ١٢٨، ابن عذاري، ج ٥٤، ص ١٣، وأعمال الأعلام، ص ٢٢٩.
- ٧٠- روض القرطاس، ص ١٤٤.
- ٧١- الحلة السريعة، ج ٢، ص ٩٨، ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٥٠، وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١١٣-١١٦.
- ٧٢- راجع ما ذكره ابن بسام في الذخيرة، قسم ٢، المجلد ٢، ص ٦٥٧ وما بعدها.
- ٧٣- انظر الأسطول المرابطي ومشاركته في أعمال الجهاد وحماية الطرق البحرية في الرحلة التيجانية لمؤلفه التيجاني من أعيان القرن الثامن الهجري وانظر المكتبة الصقلية، ص ٢٨٢-٢٨٣، وابن عذارة، ج ٤، ص ٦٧.
- ٧٤- الروض المعطار، ص ١٨٤.
- ٧٥- راجع ما ذكره الحميري والسلوي عن إنشاء السفن والمراكب للعبور إلى الأندلس (الروض المعطار، ص ٨٣، الاستقصاء، ج ٢، ص ٥٣) ويبدو أن وسائل العبور لم تكن مهيأة.
- ٧٦- راجع ما ذكره الأمير عبد الله في كتاب التبيين وما كتبه ابن بسام في الذخيرة.
- ٧٧- التبيين، ص ١٠٢.
- ٧٨- الكامل (بيروت، ١٩٦٦)، ج ١٠، ص ١٥١، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٢٤٥.
- ٧٩- في نفح الطيب روى المقرئ نقلاً عن ابن الأثير: "تخوف أكابر الأندلس من الأذفونش وأنه اجتمع منهم رؤساء وساروا إلى القاضي..."، ج ٦، ص ٩٣.
- ٨٠- الكامل، ج ١٠، ص ١٥١-١٥٢.

- ٨١- المصدر السابق، ص ١٥٢.
- ٨٢- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ٨٣- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ٨٤- المصدر السابق، والصفحة ذاتها، الاستقصاء، ج ٢، ص ٤٠.
- ٨٥- الحلة السيرة، ج ٢، ص ٩٨-٩٩، ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٥٠، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١١٣-١١٦، أعتاب الكتاب، ص ٢٢٣ التبيان، ص ١٠٣.
- ٨٦- الكامل، ج ١٠، ص ١٥١.
- ٨٧- التبيان، ص ١٠٣.
- ٨٨- المصدر السابق، ص ١٠٢.
- ٨٩- التبيان، ص ١٠٢.
- ٩٠- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ٩١- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ٩٢- محي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٩١.
- ٩٣- الروض المعطار، ص ٨٧، روض القرطاس، ص ٨٧.
- ٩٤- الروض المعطار، ص ١٠٣.
- ٩٥- التبيان، ص ١٠٣، روض القرطاس، ص ٨٧.
- ٩٦- التبيان، ص ١٠٤.
- ٩٧- نفح الطيب، ج ٢، ص ١٧٧٩.
- ٩٨- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) بغية الملمس في تاريخ أهل الأندلس مدريد ٨٨٤، ص ٣١.
- ٩٩- التبيان، ص ١٠٤.
- ١٠٠- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٠١- راجع عن مغادرة القوات المشتركة إشبيلية باتجاه بطليوس: الحلل الموشية،

ص ٣٩، التبيان، ص ١٠٤، روض القرطاس، ص ١٤٦، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٢٤٦، ج ٣، ص ٢٤٢.

١٠٢- معركة الزلاقة خارجة عن موضوع البحث لأنها ترتبط بالعلاقات مع الأسبان كما أنها تتطلب مصادر خاصة، انظر الروض المعطار في خبر الأخطار.

١٠٣- يذكر بعض المؤرخين: كالنويري (نهاية الأرب، ج ٢٢٢، ص ١) أن معركة الزلاقة قد جرت في الأيام العشرة الأولى من شهر رمضان سنة ٤٧٧هـ، على حين نجد أن ابن خلدون (العبر) ج ٦، ص ١٨٦، يقول: إنها حدثت في سنة ٤٨١هـ، ويبدو أن ابن خلدون قد خلط بين الجواز الأول لابن تاشفين والجواز الثاني، أما بقية المؤرخين فيجمعون على أن معركة الزلاقة قد حدثت في سنة ٤٧٩هـ في شهر رجب...، انظر بغية الملتبس، ص ٣١، الحل الموشية، ص ٤٦، الحلة السبراء، ج ٢، ص ٦٢٠، الكامل، ج ١، ص ٦٣، جامع تواريخ فاس، ص ٣٠.

١٠٤- وفي ذلك يقول الشاعر ابن اللبانة:

يوم العروبة كان ذلك الموقف وأن شهدت فأين من يستوصف؟

وقال أبو جهور:

لم تعلم إذا جاءت مصمة يوم العروبة إن اليوم للعرب

روض القرطاس، ص ١٥١.

١٠٥- روى صاحب روض القرطاس أن المعتمد بن عباد ثبت في المعركة وأبلى بلاء حسناً، وجرح ست جراحات، وفي ذلك يقول مخاطباً بعض ولده:

أبا هاشم هشمتي الشغار فله صبري لذا لك الأوار
ذكرت شخيصك ما بينها فلم يثني ذكركه للفرار

- روض القرطاس، ص ١٥١-١٥٢، و: ديوان المعتمد، ص ٤٨، والذخيرة: قسم ٢، المجلد ١، ص ٧٣.
- ١٠٦- روض القرطاس، ص ٩٩.
- ١٠٧- انظر عن الكمبيادور وعلاقته بالمسلمين، الحلة، ج ٢، ص ١٢٥، ابن عذاري، ج ٤، ص ٣١، ليفي بروفنسال الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٦٠، كذلك Pidal: the Cid and His. Spain London 1954, P245.
- ١٠٨- نفح الطيب، ج ٢.
- ١٠٩- الحلل الموشية، ص ٥٤-٦٢.
- ١١٠- المصدر السابق، ص ٦٠-٦١، وفي الحلة السبراء (١٨ ألف بين خيل ورجل)، ج ٥، ص ١٧٤-١٧٥.
- ١١١- روض القرطاس، ص ٩٩.
- ١١٢- روض القرطاس، ص ٩٨.
- ١١٣- أبو بكر محمد بن عمار، انظر ترجمته في الذخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٤٠٥، الحلة السبراء، ج ٢، ص ١٣١، أعمال الأعلام، ص ١٦٠، النفج، ج ١، ص ٩٥٢، رايات المبرزين، ص ٢٥، الشذرات، ج ٣، ص ٣٥٦، الجزيرة، ج ٢، ص ٧١، بغية الملتمس، رقم ٢٤٧.
- ١١٤- التبيان، ص ٨٠، وهو (عبد الرحمن بن رشيق، كما ذكر ابن الأبار)، الحلة، ج ٢، ص ١٣١.
- ١١٥- التبيان، ص ٧١-٦٩، و ٧٩-٨٢، الذخيرة: قسم ٢، المجلد ١، ص ٤١٧.
- ١١٦- قال ابن بسام: كان القبض على ابن عمار بشقورة يوم الجمعة لست بقين لربيع الآخر سنة سبع وسبعين، الذخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٤١٧، أعمال الأعلام، ص ١٦٠.

- ١١٧- الذخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٤٣١-٤٣٢.
- ١١٨- التبيان، ص ٨١.
- ×- الحلة السيرة، ج ٢، الصفحة ١٧٤-١٧٥.
- 119- Gaspari Remiro: **Musulmana**. P. 134.
- ١٢٠- الحلة السيرة، ج ٢، الصفحة ١٧٤-١٧٥.
- ١٢١- التبيان، ص ١٠٨.
- ١٢٢- الحلل الموشية، ص ٤٧-٤٨.
- ١٢٣- أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٢٤٩.
- ١٢٤- الحلة السيرة، ج ٢، الصفحة ١٧٤-١٧٥.
- ١٢٥- ذكر حسين مؤنس محقق كتاب الحلة السيرة أن عبور ابن تاشفين الثاني في ربيع أول من عام ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، انظر الحلة، ج ٢، ص ٨٦، هامش رقم (١).
- ١٢٦- الحلل الموشية، ص ٥٥.
- ١٢٧- التبيان، ص ١٠٨، الحلل الموشية، ص ٥٥-٥٦.
- ١٢٨- الحلل الموشية، ص ٥٥.
- ١٢٩- أعمال الأعلام، ص ١٨٦، الحلل الموشية، ص ٥٥، التبيان، ص ١٠٨، ابن الخطيب، الإحالة في أخبار غرناطة، تحقيق عنان، دار المعارف بمصر، ص ١٥٤.
- ١٣٠- الحلل الموشية، ص ٥٥، قسم ١، المجلد ٢، ص ٧٣٣، قال ابن بسام: "ولما أهابوا بأمر المسلمين وناصر الدين... دخل ابن صمادج في غمارهم، ومشى على أثارهم، فخرج عن المرية إلى لبيط يجر جيشاً، لا تتأبى الطير عدوته، ولا يتوقع العدو وطأنه".
- ١٣١- الحلل الموشية، ص ٥٤-٦٢.

- ١٣٢- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٣٣- روض القرطاس، ص ٩٩.
- ١٣٤- أعمال الأعلام، ص ١٨٦.
- ١٣٥- التبيان، ص ١٠٩.
- ١٣٦- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٣٧- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٣٨- المصدر السابق، ص ١١٠.
- ١٣٩- التبيان، ص ١١٠.
- ١٤٠- المصدر السابق، ص ٨١.
- ١٤١- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٤٢- المصدر السابق، ص ١٤٤.
- ١٤٣- المصدر السابق، ص ١١٢، الحلل الموشية، ص ٥٤-٦٢.
- ١٤٤- المصدر السابق، ص ١١١.
- ١٤٥- التبيان، ص ١١٢.
- ١٤٦- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٤٧- المصدر السابق، والصفحة ذاتها، الحلل الموشية، ص ٥٤-٦٠.
- ١٤٨- التبيان، ص ١١٠.
- ١٤٩- التبيان، ص ١١٠.
- ١٥٠- الحلل الموشية، ص ٥٦، أعمال الأعلام، ص ٢٩٥. التبيان، ص ١١١،
وص ١١٤.
- ١٥١- انظر ترجمة في الإحاطة، ج ١، ص ١٥٤-١٥٦.
- ١٥٢- التبيان، ص ١٠٩.
- ١٥٣- التبيان، ص ١١١.

- ١٥٤- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٥٥- المصدر السابق، ص ١١٠-١١٢.
- ١٥٦- المصدر السابق، ص ١١٣.
- ١٥٧- التبيان، ص ١١٣.
- ١٥٨- المصدر السابق، ١١٢-١١٣، الحل الموشية، ص ٦٢.
- 159- Dozy: Abbadidarum, volm 11, P,g.
- ١٦٠- الروض المعطار، ص ٩٣.
- ١٦١- الحل الموشية، ص ٤٩.
- ١٦٢- البكري، المغرب، ص ١٦٦.
- ١٦٣- روض القرطاس، ص ٩٩، الحل الموشية، ص ٥٦.
- ١٦٤- التبيان، ص ١١٢-١١٣، روض القرطاس، ص ٩٩.
- ١٦٥- سبقت ترجمته.
- ١٦٦- ديوان ابن حمديس، ص ١٦٤.
- ١٦٧- التبيان، ص ١٢٢.
- ١٦٨- التبيان، ص ١٢٣.
- ١٦٩- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٧٠- المصدر السابق، ص ١٢٢.
- ١٧١- المصدر السابق، ص ١١٦.
- ١٧٢- المصدر السابق، ص ١٤٤-١٤٥.
- ١٧٣- النخيرة.
- ١٧٤- ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٧.
- ١٧٥- مدينة أليسانة (Lucenna) أو اللسانة تقع شمال غربي لوشه بولاية غرناطة،

انظر: الأكريسي: المغرب وأرض السودان والأندلس، (تحقيق دوزي)، ص ٢٠٥.

١٧٦- التبيان، ص ١٣٠-١٣٢.

١٧٧- انظر ترجمته ومحتته على يد الأمير عبد الله في مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣/ص ١٩١-١٩٩، وفيه نقل ابن الخطيب عن ابن الصوفي.

١٧٨- المصدر السابق، ص ١٣٦-١٣٨.

١٧٩- المصدر السابق، ص ١٣٩.

١٨٠- الإحاطة، ج ١، ص ١٥٤-١٥٦، التبيان، ص ١٢٨.

١٨١- أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٢٥٠، الحلل الموشية، ص ٥٤-٦٠، روض القرطاس، ص ٩٩.

١٨٢- ابن عذاري، ج ٤، ص ١٢١.

١٨٣- الروض المعطار، ص ٣٠٣.

١٨٤- ابن خلكان، ج ٢، ص ٣١، النويري، ج ٢٢، ص ١٨٤.

x - وذكر ابن الأثير نقلاً عن مصادر أندلسية (ابن اللبابة) ما يلي: "فلما أراد أمير المسلمين ملك الأندلس سار من مراكش إلى سبتة، فأقام بها، وسير العساكر مع سير ابن أبي بكر وغيره إلى الأندلس". الكامل، ج ١٠، ص ١٨٩.

١٨٥- الحلل الموشية، ص ٥٤-٦٢.

١٨٦- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

١٨٧- التبيان، ص ١٦٠.

١٨٨- وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٣١، نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١٨٢.

١٨٩- المعجب، ص ٨٨.

١٩٠- روض القرطاس، ص ٩٩، التبيان، ص ١٤٦.

١٩١- روض القرطاس، ص ٩٩.

- ١٩٢- التبيان، ص ١٢٠.
- ١٩٣- التبيان، ص ١٢٠.
- ١٩٤- التبيان، ص ١٢٥.
- ١٩٥- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ١٩٦- قال ابن عذارى: "أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين، فنظر في اختزان الأقوات، وألحق الرماة والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصل بعضها ببعض، وأقام عليها للدياباتات، ونصب الرعدات، وملأ بيوت السلاح، وجد في ضرب السهام وبذل في ذلك جهده....، ونقل المال والذخيرة، وخرج المتاع والأنية إلى قصبة المنكب لكونها في غاية المنعة وعلى ضفة البحر، ... وهدم حصونا، توهم عليه القيلم منها..."، انظر الملحق الأول في كتاب التبيان، ص ٢٠٦-٢٠٧، (من مخطوطة مكتبة جامع القرويين بفاس) رقم (١٨٥٥).
- ١٩٧- التبيان، ص ٢٠٧، وفي ذلك يقول السمساري:
- | | |
|----------------------|-----------------------|
| صانع غرناطة سيفه | وأعلم الناس بالأمر |
| صانع أذفونش والنصارى | فانظر إلى رأيه الدبير |
| وشاد بنيانه خلفاً | لطاوعة الله الأمير |
| دعوه يبني فسوف يدري | إذا أنت قدره القدير |
- انظر التبيان، ص ٢٠٧.
- ١٩٨- التبيان، ص ١٢٧.
- ١٩٩- التبيان، ص ١٢٧.
- ٢٠٠- المصدر السابق، ص ١٢٨.
- ٢٠١- المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

- ٢٠٢- المصدر السابق، ص ١٤٦.
- ٢٠٣- المصدر السابق، ص ١٤٧.
- ٢٠٤- التبيان، ص ١٤٧.
- ٢٠٥- التبيان، ص ١٤٩.
- ٢٠٦- بغية المتلمس، ص ٣٢.
- ٢٠٧- تختلف الرويات في كيفية استيلاء المرابطين على المدينة، فالبعض يقول باستيلاء المرابطين عليها بطريقة الغدر والحيلة، انظر: الكامل، ج ١٠، ص ٥٣، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٠، نفح الطيب، ج ٢، ص ٥٣٣، والبعض يقول أنهم استولوا عليها عنوة، راجع ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٧، وفي روض القرطاس، ص ١٠٠، أنه استولى عليها الأمان، وفي الحلل الموشية، ص ٥١، أن صاحبها قد سلمها من تلقاء نفسه وهذا مطابق لما جاء في منكرات الأمير عبد الله نفسه في كتاب (التبيان)، ص ١٥٤-١٦١، وانظر ذلك W.M. Watt: p.99.
- ٢٠٨- راجع أحوال المدينة... التبيان، ص ١٥٠-١٥١.
- ٢٠٩- قال ابن الخطيب: "اجتمع إلى حفيد باديس (أي عبد الله) صنائعه، فخوفوه من عاقبة التربص وحملوه على الخروج إليه، وركب وركبت أنه، وخرجا، وتركوا القصر على حاله ولقي أمير المسلمين على فرسخين من المدينة، فترجل وسأله العفو، فعفا عنه"، مخطوط الاسكوريال رقم (١٦٧٣)، ص ٢١٤.
- ٢١٠- راجع عن استسلام الأمير عبد الله ونهب أمواله ونفيه، التبيان، ص ١٥٤-١٤٦، كذلك أعمال الأعلام، ص ٢٣٥، ويبدو أن الأمير عبد الله نقل بعد ذلك إلى مراکش، كما ذكر ابن الخطيب، واستقر بها هو وأخوه تميم، وكان سنة يوم خلع خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر.
- x - وذكر ابن الخطيب أن أهل غرناطة خرجوا للقاء المرابطين ولمبايعة ابن تاشفين،

"قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ورفع أنواع القبالات والخراج التي لا يقرها الشرع، انظر: مخطوط الاسكوريال، رقم ١٦٧٣، ص ٢١٤.

٢١١- التبيان، ص ١٦٢-١٦٣.

٢١٢- التبيان، ص ١٦٥.

٢١٣- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

٢١٤- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

٢١٥- المصدر السابق، ص ١٦٦.

٢١٦- عن أثر سقوط غرناطة على المعتمد وآل بيته ينقل ابن الأثير عن أبي بكر عيسى بن اللبانة قوله: "كنت عند الرشيد بن المعتمد في مجلسه... فجرى ذكر غرناطة، وملك أمير المسلمين لها، فلما ذكرناها تفجع، وتلف، واسترجع..."، الكامل، ج ١٠، ص ١٨٨.

٢١٧- التبيان، ص ١٦٩.

٢١٨- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

٢١٩- هذه قضية خلافية جداً، كما أنها خلافية أكثر من ناحية زمن ونوع الزواج، يقول بروفنسال: ليس هناك في الحقيقة نصيب كبير من الصحة للرأي القائل بأن زوجة الفونسو السادس المسلمة كانت قد عقدت زواجها في أثناء حياة زوجها الأول (المأمون بن المعتمد بن عباد)، ثم إن الزواج لم يكن شوعياً، إذ أن الفونسو كان متزوجاً في هذه الفترة منذ (١٠٨٠م) وللمرة الثانية بالملكة (كونستانس) أرملة كونت ديسا CHALON-SUR-SAONE وابنة روبر ROBERT دون دوق برجوني BOURGONE وابنة أخ روبر الصالح ROBERT PIEUX ملك فرنسا. ماتت كونستانس في بداية عام ١٠٩٣م ودفنت في ساهاجون وكانت قد أنجبت ابنته (أراكة) التي تزوجت ريمون دي يورجني ثم الفونسو المحارب وفي نفس هذا العام تزوج الفونسو السادس

(ALPHONSO LE BATALLEUR) بعد عهد قصير من الملكة بيرت (BERTHE) التي ماتت بدورها في سنة (١١٠٠م)، انظر رامون مندل بيدال، أسبانية في عهد السيد (ط١، ص ٢٧٢، ٤٤٨، ٧٧٨)، كذلك أورد بيدال في كتابه (قشتالة التقاليد واللغة) مجموعة AUSTRA مدريد، بونس ايرس، ١٩٤٥م، ص ٩٥-١٣٩، ما يلي: "...إن ذلك الحماس الديني الذي أوهم المعتمد الناس به قاصداً من ذلك ألا يدع هناك مجالاً لتدخل أمير المرابطين، كان موقفاً قد فات أوانه في اللحظة التي حدثت فيها قصة اتخاذ الفونسو السادس (زايدة) خليفة له... وليس من الطبيعي في هذا الموقف افتراض أن زايدة وقد تصرف من هواها (وهو أمر في حد ذاته لا يقبله العقل خاصة إذا صدر من امرأة مسلمة) وأتما المعتمد نفسه هو الذي دبر هذا الأمر ولم يكن الإخلال بأحكام الإسلام الذي فشا في هذه الأسرة الملكية عملاً انفردت به الأميرة الأرملة، وإنما كان عملاً سياسياً قام به المعتمد.... وكان وقت إذ قد امتلأ صدره غيظاً على مظهر المرابطين الزائف وعدوانهم له حرص على أن يحظى بتعاون فعلي من الفونس بأس ثمن رغبة في الدفاع عن إشبيلية) وانظر كذلك: مجلة HESPERIS سنة ١٩٣٤م، ص ١-٨، ج ١٨، وكذلك ص ٢٠٠-٢٢٠، تحت عنوان (زايدة المسلمة كنة المعتمد) وانظر كتاب أسبانيا في عهد السيد ط١، ص ٧٧٧.

٢٢٠- التبيان، ص ١٦٩.

٢٢١- ابن خلدون، ج ٦، ص ١٨٧-١٨٨، التبيان، ص ١٦٩.

٢٢٢- المعجب، ص ٧٥.

٢٢٣- جرور احمشي: وذكر الأمير عبد الله أن جرور قد (ظفر بالراضي، وخدعه، وحصل على أمواله، ثم قتله، خوفاً من أن تفضح تلك الأموال، وقيل أن ذلك لم يكن على رأي السلطان، وأمر بقتل من ظفر به في رعدة المذكورة من

- الأحرار والجند المقاتلين) انظر: التبيان، ص ١٧١.
- ٢٢٤- انظر ترجمته في الحلة السبراء، ص ٦٢، وكتاب دوزي عن بني عباد، ج ٢، ص ٥٧ (٨٨)، وكان يزيد (أبو خالد الملقب بالراضي) قد ولى الجزيرة الخضراء لوالده وكان بها عندما عبرت جيوش ابن تاشفين البحر لملاقاة ملك الروم (الانفونش) وقد قتله قروور اللمتوني غداً برلاند بعد أن سلمه البلد، قال ابن الأبار: كان شاعر بني عباد بعد أبيه.. وكان من الأهل العلم والأدب، عالماً بأنساب العرب وأيامهم...).
- ٢٢٥- التبيان، ص ١٧١، وانظر الملحق (٣) في البيان المغرب، ج ٤، ص ١٤٤، حيث نقل ابن عذاري عن صاحب الحلل الموشية.
- ٢٢٦- روض القرطاس، ص ١٠٠.
- ٢٢٧- في رواية صاحب الحلل (أبو عبد الله بن الحاج) الحلل الموشية، ص ٥٩-٦٢.
- ٢٢٨- أبناء المعتمد أربعة وهم: الرشيد، المأمون، والراضي، والمؤمن (أو المعتمد بالله) انظر المراجع المذكورة في كتاب بروفنسال (النقوش العربية في أسبانية) (طبعة-ليون باريس)، ١٩٣١، ص ٤١، (INSCRIPTION, ARABES DE ESPAGNA).
- ٢٢٩- روض القرطاس، ص ١٠٠.
- ٢٣٠- DOZY: Histoire Des Musulmans D 'Espagne (طبعة ليون، ١٩٣٢)، ج ٣، ص ١٤٨، (الطبعة الجديدة).
- ٢٣١- الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٦٠.
- ٢٣٢- التبيان، ص ١٧٠.
- ٢٣٣- المصدر السابق، والصفحة ذاتها.
- ٢٣٤- HISTOIRE DES MUSULMANS, 148 والإسلام في المغرب

- والأندلس، ص ١٦٠.
- ٢٣٥- أعمال الأعلام، ص ١٦٢، بينما في ذكر في الإحاطة، ج ٢، ص ٧٣، أن سقوط المدينة كان في جمادى الآخرة، عام ٤٨٤ هـ.
- ٢٣٦- روض القرطاس، ط-، الرباط ١٩٧٢، ص ١٥٤-١٥٥.
- ٢٣٧- التبيان، ص ١٧١.
- ٢٣٨- وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٨٧.
- ٢٣٩- أعمال الأعلام، ص ١٦٣، روض القرطاس، ص ١٥٥.
- ٢٤٠- التبيان، ص ١٧٠.
- ٢٤١- روض القرطاس، ص ١٥٤-١٥٥، تحدث ابن الأثير أيضاً عن هذا العون القشتالي فقال: وكانت الفرنج قد سمعوا بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا فأكثروا، وساروا ليساعدوا المعتمد، ويعينوه على المرابطين، فسمع سير بن أبي بكر، تقدم المرابطين بمسيرهم، ففارق إشبيلية وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلقبهم، وهزمهم، وعاد إلى إشبيلية فحصرها...، الكامل، ج ١٠، ص ١٨٩-١٩٠.
- ٢٤٢- في رواية أخرى في (بلمة) من احواز إشبيلية (أعمال الأعلام، ص ١٦٣).
- ٢٤٣- روض القرطاس، ص ١٥٥، أعمال الأعلام، ص ١٣٦، الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠.
- ٢٤٤- النخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٥٣، الكامل، ج ١٠، ص ١٨٩.
- ٢٤٥- المصدر السابق، ص ٥٦.
- ٢٤٦- الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠.
- ٢٤٧- التبيان، ص ١٧٠.
- ٢٤٨- النخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٥٣.
- ٢٤٩- التبيان، ص ١٧١، النخيرة، ص ٥٦-٧٥.

٢٥٠- هي: الرمكية: نسبة لمولاه رميك ابن الحاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد، وكان مفرط الميل إليها حتى تلقب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها، وهي التي أغرت سيدها بقتل أبي بكر بن عمار لذكره إياها في هجائه المعتمد... الحلة السبراء، ج ٢، ص ٦٢.

٢٥١- الذخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٥٦.

٢٥٢- أعمال الأعلام، ص ١٦٤.

٢٥٣- التبيان، ص ٧٧.

٢٥٤- المعجب، ص ٧٧.

٢٥٥- رواية ابن اللبابة في نفع الطيب، ج ٢، ص ٤٥٢.

٢٥٦- ابن خلدون، ج ٦، ص ١٩٠-٢٤٨، ابن الخطيب في أعمال الأعلام، ص ١٦٣-١٦٤، والأمير عبد الله في التبيان، ص ١٧٠، وابن خاقان في القلائد، ص ٢١-٢٢.

٢٥٧- روض القرطاس، ص ١٦٦، الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠.

٢٥٨- نفع الطيب، ج ٢، ص ٤٥٣.

٢٥٩- الذخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٥٦.

٢٦٠- قلائد العقبان، ص ٢٢، (في ترجمة المعتمد)

وينقل ابن بسام ما قاله المعتمد أثناء ذلك:

لما تماسكت الدموع	وتببه القلب الصديق
قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم الخضوع
والذ من طعم الخضوع	على فمي السم النقيع
وأن تستلب عني الدنيا	ملكبي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
قد روت يوم نزالهم	ألا تحصنني الدروع

وبرزت ليس سوى القميص على الحشاشي دفوع
وبنلت نفسي كي تسيل إذا يسيل بها النجيع
ما سرت قط إلى القفال وكان من أمني الرجوع

الذخيرة، قسم ٢، المجلد ١، ص ٥٦.

٢٦١- التبيان، ص ١٧٠، الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠.

٢٦٢- قال ابن خاقان: "وحمل في السفين، وأحل في العدو محل الدفين، تنبذه منابر وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده" القلائد، ص ٢٣-٢٤، وقد صور المعتمد نفسه ما آل إليه وما آلت إليه بناته من جوع وفقر في ديوانه، ص ١٠٠-١٠١:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فجاءك العيد في أغمات مأسور
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قطميراً

٢٦٣- قال ابن بسام: ووافاه حمامه بعد مرض شديد أصابه، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ، وكان مولده في ربيع الأول سنة ٤٣١ هـ، "ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظيم سلطانه وجلالة شأنه"، الذخيرة: قسم ٢، المجلد ١، ص ٥٧، وراجع كتاب دوزي عن بني عبد: (HISTORIA ABBADIDORUM (LIDEN, 1840)) وفيه جمع دوزي ما جاء عنهم في المصادر العربية.